أثر التطور في الشاهد البلاغي استحسانًا واستقباحًا

د/ علي عبد الحميد أحمد عيسى
المدرس في قسم البلاغة والنقد بالكلية

توطئـــــه :

من البدهي عند ذوي العقول أن للزمن أثرا في تطور ورقي الأشياء المحيطة به ، فيتفاعل معها ، ويؤثر فيها ، ويضفي عليها جمالا وحسنا ، أو قبحا ونفورا ... وما يترتب على ذلك من أن بعضها يضوع وينتشر في بعض الأوقات ... بينما يخفت في بعضها الآخر ...

ولا ريب أن البيان — بمعناه العام — جزء من الأشياء التي يتفاعل معها الزمن . وترى ذلك بينا في الشاهد البلاغي ، حيث تجد بعض الكلمات حسنة ومقبولة في عصر ما ... ثم تراها بعينها مستقبحة نافرة في موضع آخر ، لما علق بها من معان لا تتفق مع نفس المحدث ...

وهكذا بعض التشبيهات التي تركها المحدثون لعدم توافقها مع نفسيتهم ... أو بيئتهم وما استجد فيها من أشياء أمدتهم بها المعارف الجديدة ...

ثم تجد مقياس الحسن والجمال يختلف في الاستعارة كذلك تبعا للتطور الحادث في الحياة والأحياء ... ومن ثم استقبحت بعض الاستعارات القديمة لعدم جريها على ما استجد ... أو عادات بائدة ...

وكذلك تجد الكناية الجاهلية قد تركت الى غيرها .. لاسيما التى بنيت على عادات أبطلها الإسلام فأميتت .. وبالتالى هجرت الكناية تبعا لذلك ..

ومن العجب أنك لا تجد شيئا من ذلك فى ألفاظ القرآن الكريم أو صوره لأن صوره مبنية على ثوابت لا تتغير بتجدد الأيام والأعوام كعناصر الطبيعة والنفس .... وهما خالدان بخلود الأحياء ...

ومن ثم جاء البحث فى أربعة مباحث :

المبحث الأول : أثر الزمن فى فصاحة المفردات ، سواء فى استقباح بعض الألفاظ التى ارتبطت ــ بفعل الزمن ــ بمعنى تكرهه النفس ، أو فى غرابة الألفاظ ...

المبحث الثانى : عامل الزمن وأثره فى تجدد طرفى التشبيه ، سواء فى هجر ما لا يلائم نفس المحدث ، أم فى تجدد معانى التشبيه تبعا للتطور الحضارى ، أو التوليد فى التشبيه ، أو الرمز ..

المبحث الثالث : أثر التطور الزمنى فى استقباح واستحسان بعض الاستعارات ..

المبحث الرابع : أثر التطور فى هجر بعض الكنايات ...

أولا ــ أثر التطور فى فصاحة المفردات :

من البدهى ــ عند العلماء ــ أثر اختلاف المقامات ، والأزمنة ، والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ...

وهكذا تجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند أهله(١) ...

وقد أثر ذلك فى الكلام على فصاحة المفردات ... حيث ينظر الى الكلمة من حيث : زمنها ، ومقامها ، ثم سياقها فى النظم ...

أما ما يتصل بالزمن ، فان الناظر الى أقوال العلماء يجد له أثرا من وجهين :

أولا ــ أثر التطور فى استقباح الألفاظ :

وهو ما عرف عندهم بالكراهة فى السمع ، حيث ترتبط الكلمة خلال مسيرتها فى الحياة ببعض المعانى التى ينفر منها الطبع ، وتمجها النفس ، وتكرهها الأذن ...

ولهذا اشترط ابن سنان الخفاجى لفصاحة الكلمة ألا تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ...

ــ وذلك كلفظ « الكنيف » حيث دل ــ فى العصر الجاهلى ــ على المكان الذى تستره الأشجار .. فهو ــ فى أصل وصفه ــ مكان للاسترواح ، فهو أقرب الى لفظ : حديقة ، والدليل على ذلك قول رجل من خثعم يرثى قومه ، وكانوا قد دخلوا حديقة من حدائقهم فى بعض حروبهم ، وأغلقوا بابها عليهم ، ثم اقتتلوا ، فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضا :

---

(١) ينظر : العمدة ١/٩٣ تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الجيل ط خامسة ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

من كل فياض اليدين اذا غدت نكباء تلوى بالكنيف الموصد

يقول المرزوقي : « والكنيف : الحظيرة من الشجر ... »(٢) .

ثم تأثر معناها بفعل الزمن ... فصارت تطلق على الآبار التي تستر الحدث ، فأصبحت غير فصيحة ؛ لأن السمع يأباها ، ويتكره منها ...

ولذلك عاب ابن سنان قول عروة بن الورد العبسي(٣) :

قلت لقوم في الكنيف تروحوا
عشية بنتا عند ماوان رزح

يقول : « والكنيف أصله : الساتر ، ومنه قيل للترس : كنيف ، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث ، وشهر بها ، فأنا أكرهه في شعر عروة ... لموافقته هذا العرف الطارىء ... » .

بيد أن عيب ابن سنان لعروة وهو جاهلي ، لم يكن يعرف تلك الآبار ، فلم تكن تلك الكلمة على عهده قبيحة ... = بعيد عن الصواب ، لأن الكلمة لم تكن قد اقترنت بعد بما يخرجها عن الفصاحة ... وقد بينا ذلك في موضع آخر(٤) ...

---

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/٨٠٦ ـ دار الجيل ط أولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

(٣) ديوانه /٢٣ ، وشرح ديوان الحماسة ١/٤٦٤ .

(٤) ينظر : مناقدة ابن سنان للمتنبي بين التحليل البياني والعمود الشعري /٦ للباحث ـ مطبعة العدوى .

ـ وكذلك قبحت كلمة « الصرم » فى قول المتنبى(٥) :

أذاق الغوانى حبسه ما أذاقنى
وعف فجازاهن عنى بالصرم

فان معناها ـ فى أصل اللغة ـ هو القطع ، يقال : صرمه .. اذا قطعه ، ومن ثم فليس فيها ما يخرجها ـ فى أصل وضعها ـ عن الفصاحة ...

بيد أنه قد تحول معنى الكلمة الى دلالته على المحل المخصوص من الحيوان ، وذلك بفعل الزمن ... ولذلك كانت قبيحة .

ولأن ذلك الاستعمال قد استجد بفعل الزمن ، حيث ارتبط بما يستقبح ذكره فلا يعاب البدوى أو الجاهلى باستعمال اللفظ ، دون الحضرى والمولد ...

يقول ابن الأثير : « وهذا الضرب المشار اليه لا يعاب البدوى على استعماله ، كما يعاب المحتضر ؛ لأن البدوى لم تتغير الألفاظ فى زمنه ، ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن المحتضرة من الشعراء .. »(٦) .

وهذا ما قطع به ابن السبكى حيث ذهب الى أن الابتذال فى

---

(٥) فى مدح الحسين بن اسحاق التنوخى . شرح ديوانه : ٤/١٧٤ وفيه : « على الصرم » .

(٦) المثل السائر ١/١٩٧ ـ تـ د/ أحمد الحوفى ، ود/ بدوى طبانة دار نهضة مصر .

الألفاظ وما يدل عليه ليس وصفا ذاتيا ، ولاعرضا لازما ، بل لاحقا من اللواحق المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان ، وصقع دون صقع .. »(٧) .

ولهذا لا يعاب أبو صخر الهذلي فى قوله(٨) :

قد كان صرم فى الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

كما عيب على المتنبى — من قبل — لأن تلك اللفظة لم تكن قد داخلها المعنى الثانى . وهذا أولى من عيب ابن سنان(٩) المطلق للكلمة، ومن ثم عاب الشاعر — أبا صخر — لأنه لم يراع الوقت الذى قيلت فيه .

— ومن الألفاظ التى أخرجها العلماء من الفصاحة بسبب التطور الزمنى كلمة : « مقاعد » فى قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلت
من جانبيك مقاعد العواد

فقبح الكلمة لموافقتها لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ، لاسيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليهم ، وهم « العواد » .

---

(٧) عروس الأفراح ١/٩٣ .
(٨) من قصيدة مطلعها :
بيد الذى شعف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الكرب
شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/١٢٣٤ .
(٩) سر الفصاحة ٨٥ ، ٨٦ .

ويرى ابن سنان أن لفظ : « مقاعد » لو انفرد لكان الأمر فيه سهلا ، فأما اضافته الى من ذكر فلا خفاء فى قبحه(١٠) .

وعلى هذا توزن الكلمة بحسب من تضاف اليه ، ولهذا جاءت فى الذكر الحكيم فى قوله ــ سبحانه ــ : « واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال »(١١) .

وفى قوله ــ سبحانه ــ : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع .. »(١٢) = فصيحة ؛ لأنها غير مضافة الى من تقبح اضافته اليه ... فضلا عن عدم ارتباطها بما يستقبح ذكره فى ذلك العهد ...

وعلى هذا فلو قال الرضى : مقاعد الزيارة ، أو ما جرى مجراه ، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة(١٣) .

ومن ثم تضافر عامل الزمن والنظم على ابتذال تلك الكلمة فى بيت الشريف الرضى ...

ــ ومن الكلمات التى ابتذلت بفعل الزمن لفظ « جنابة » لارتباطها بما يسر ويخفى ... ولذلك عيب على الشريف الرضى ــ أيضا ــ فى قوله :

سلام على الأطلال لا عن جنابة
ولكن يأسا حين لم يبق مطمع

---

(١٠) المرجع السابق .
(١١) آل عمران /١٢١ .
(١٢) الجن /٩ .
(١٣) ينظر : المثل السائر ١/٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وعلم الفصاحة العربية ١٢٣ ، ١٢٤ د/ محمد على رزق الخفاجى ــ دار المعارف .

فان « جنابة » ـ هنا ـ غير مرضية ؛ لانتقالها الى المعنى المبتذل، لشيوعه بين العامة ، وعلوقه بألسنتهم(١٤) ٠

ـ وكذلك تقبح كلمة « الغائط » اذا كانت بمعناها الحقيقي وهو المنخفضة من الأرض ، وذلك كما فى قول عمرو بن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى
قليل الأنس ليس به كتيع(١٤)

وذلك لارتباطه بالكناية عن قضاء الحدث ؛ نتيجة لالتزام القرآن الكريم الكناية عن قضاء الحاجة بالغائط فى آيات كثيرة ٠٠ فارتبط دلاليا بذلك ، فصار قبيحا ٠٠٠

ولهذا ترى استعماله فى معناه الحقيقى عند الشعراء الجاهليين غير قبيح أو ـ مستهجن ، انظر الى قول سلم بن ربيعة ـ وهو شاعر جاهلى ـ :

ان شـــواء ونشـــوة وخبب البازل الأمون
يجشمها المرء فى الهـوى مسافة الغائط البطين

فالغائط : المطمئن من الأرض(١٥) ٠٠٠

ـ كذلك تجـد لفظ : « خرارة » حيث يطلق فى الوقت الحاضر على المستنقع من المياه ، والقـذر منها ، على حين أنه فى الأصل جار

---

(١٤) ينظر : سر الفصاحة /٨٧ ٠
(١٤) سر الفصاحة /٨٦ ٠
(١٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/١١٣٧ ٠

على العين العذبة الكثيرة التي تفيض بالماء ، يقول المرزوقي : والخرخار : الماء الكثير الجار »(١٦) .

ـ وقد يؤثر الزمن في ترك اللفظ إلى غيره مما هو أقل منه ، وقد نبه الجاحظ إلى شيء من ذلك عندما ذكر أن الناس يذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وهذا غير ما جرى عليه الذكر الحكيم ... فلم يأت الا في موضع العقاب ، أو الفقر الشديد .

وكذلك لفظ المطر ، حيث تغير بفعل الزمن ، فاستعمله الناس في موضع الانعام والحاجة اليه ... على حين أنه ما جاء في الذكر الحكيم الا في موضع الانتقام والعذاب(١٧) ..

وعلى هذا تغير مدلول الكلمة بفعل الزمن ، فأصبح مرادفا للغيث ، وهذا غير دلالتها الأصلية ..

ثانيا ـ أثر التطور في غرابة الألفاظ :

ذكر القاضي الجرجاني أن للزمن أثرا في اختيار الألفاظ ، فخص المتقدمون بمتانة الكلام وجزالة المنطق ، وفخامة الشعر ...

فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي الى القرى ، وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا الى كل شيء ذي أسماء

---

(١٦) السابق ٤/١٨٨٠ .

(١٧) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٠ ـ تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي .

كثيرة اختاروا أحسنها سمعا ، وألطفها من القلب موقعا ، والى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أساسها وأشرفها ، كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل ، فانهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة ، أكثرها بشع شنع ، كالعشنط ، والعنطنط ، والعشنق ، والجرب ، والشوقب ، والسهلب ، والشوذب ، والطاط والطوط والقاق والقوق ، فنبذوا جميع ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان ، وقلة نبو السمع عنه(١٨) ...

وعلى هذا روعى فيمن يستغرب اللفظة أن يكون من العرب الخلص ... فهم أدرى الناس بلغتهم ...

وعلى هذا تجد المولد يعد بعض الكلمات ـ التى لم يحط بمعناها ، لعدم استعمالها ـ غريبة ، على حين أنها ليست كذلك(١٩) ..

وعلى هذا فالغرابة يختلف مدلولها من جيل الى جيل ، ومن بيئة الى بيئة أخرى .. كما أنها ترتبط بالأحداث الاجتماعية التى تمر على الأمة مما ينتج عنه توليد بعض الألفاظ ... وكثرة استعمالها لعوامل تتعلق بذلك العهد ... ثم تخبو وتضعف تلك الألفاظ .. فتعد غريبة على من يأتى بعدهم ...

---

(١٨) الوساطة بين المتنبى وخصومه ١٧/ ـ تح هاشم الشاذلى دار احياء الكتب العربية .

(١٩) ينظر دراسات وتطبيقات فى علم المعانى ١/٥٣ ، ٥٤ ـ أ د/ يحيى محمد يحيى ، ط أولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .

وهذا بين ، حيث تجد لكل عصر ألفاظه التى تكثر فيه وتشيع على ألسنة أهله لأسباب متعلقة به ٠٠ حتى اذا أدبر تجـد فيها من الغرابة قـدرا كبيرا ٠٠

وعليه فالغرابة نسبية المقياس ، ولهذا فرق القـوم بين الغريب الحسن والغـريب القبيح ، فهناك الغـريب الحسن الذى لا يعـاب استعماله ــ فى عصره ــ على العرب العرباء ، لأنه لم يكن وحشيا ــ عندهم ــ فلا يعاب استعماله عليهم ، ويعاب على غيرهم(٢٠) ٠

يقول ابن رشيق ــ مفرقا بين استعمال الغريب بين المتقـدمين والمتأخرين ــ مبينا خصائص أشعار المولدين : « انما ترى ــ أى أشعار المولدين ــ لعذوبة ألفاظها ، ورقتها ٠٠٠ ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين فى غلبـة الغريب على أشـعارهم ، ووصف المهـامه والقفار ، وذكر الوحوش والحشرات : ما رويت ؛ لأن المتقدمين أولى بهـذه المعـانى »(٢١) ٠

وهذا ما نبه اليه الدسوقى(٢٢) من أن قيـاس الغـرابة على العصور التى فشا فيها اللحن ٠٠ نتيجة البعد عن مصادر اللغة = يؤدى الى اخراج كثير من قصائد العرب ، بل جلها عن الفصاحة ؛ فانها الآن ــ أى فى عهد الدسوقى ــ لغلبة الجهل باللغة ــ على أكثر علماء هذه

---

(٢٠) المطول وحاشية عبد الحكيم عليه ١/١٥٢ ٠

(٢١) العمـدة ١/٩٢ ٠

(٢١) العمدة ١/٩٢ ٠

(٢٢) حاشية الدسوقى ١/٨٣ ٠

الأزمان فضلا عمن عداهم = لا يعرفون مفرداتها ، فضلا عن مركباتها ..

ونتيجة لذلك قسم ابن الأثير(٢٣) الوحشى الى قسمين :

(أ) غريب حسن (ب) غريب قبيح .

والحسن منه ما تداول استعماله الأول ، والآخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ... وهذا ليس مما نحن فيه .

ومنه ــ وهو ما معنا ــ ما تداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف فى استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله .

وهذا هو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه لم يكن عندهم وحشيا ، وهو عندنا وحشى ..

وعلى هذا ورد ما عرف بغريب القرآن وغريب الحديث ، فورود ذلك لعلة لفظية ومعنوية ...

وعلى هذا لا يعد من الغريب ــ كذلك ــ أكثر شعر طرفة ، ولبيد ، وامرىء القيس ، والنابغة ، وزهير .. حين يصفون الناقة ، ومن تعفق بالأرطى والعضه واقعاصها ... وما شابه ذلك مما ترى فيه الشعر يوغل فى البداوة حين يلتقى بنوافرها ويصف غرائبها ... لأنه غير غريب عندهم(٢٤) ...

---

(٢٣) المثل السائر ١/١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢٤) خصائص التراكيب /٣٥ .

ثانيـا ــ عامل التطور وأثره في تجدد طرفي التشبيه :

ذكر ابن رشيق(٢٥) أن القدماء قد أتت بتشبيهات رغب المولدون ــ الا القليل ــ عن مثلها ، استبشاعا لها ، وان كانت بديعة في ذاتها .

فهو ــ بهذا ــ ينبه الى أثر الأطوار الحضارية وتبدل القيم في الحكم على بعض التشبيهات ، فهناك تشبيهات حسنة شديدة الاصابة لما يراد منها ، رغب عنها المحدثون من الشعراء ، لاختلاف البيئة ، والزمان ، والعادات ، والأذواق(٢٦) ...

وهذا مبني على أن تلك الصور تتجدد على مر الأزمان ، تبعا لسنة التغيير السارية في كل شيء : في تطور الأخلاق ، والعادات ، والنظم ، والعقول ، والأفكار ، فتعرب عن آمال عصرها والأمة ، ومعترك حوادثه بأساليب جديدة ... فالصور البيانية ــ ومنها التشبيه ــ بحكم طبيعتها المرنة معرض واسع للجديد(٢٧) ...

وأصل هذا ــ كله ــ هو أن تشبيهات العرب صورة صادقة لما أدركته في باديتها ، وما مرت به في تجاربها ، يقول ابن طباطبا العلوي : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها ــ من الأوصاف ، والتشبيهات ، والحكم ــ ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ، ومرت

---

(٢٥) ينظر العمدة ١/٢٩٩ .

(٢٦) ينظر : بيان التشبيه /١٧٧ د/ عبد الحميد العيسوي ط أولى ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م .

(٢٧) ينظر : فن التشبيه ٢/٢٤٤ ــ أ/ علي الجندي ــ دار نهضة مصر ، وبيان التشبيه /١٧٢ .

به تجاربها ، وهم أهل وبر : صحونهم البوادى ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها ، وفى كل واحدة منهما فى فصول الزمان على اختلافها : من شتاء وربيع ، وصيف ، وخريف ، من ماء وهواء ، ونار ، وجبل ، ونبات ، وحيوان ، وجماد ...

فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها • فى رخائها ، وشدتها ، ورضاها ، وغضبها ، وفرحها ، وغمها ، وأمنها وخوفها ، وصحتها وسقمها(٢٨) ...

وعلى هـذا تتجدد التشبيهات بتجدد الزمان وتزويده المبدع بكل جديد تسفر عنه المعارف والتجارب الجديدة ...

وبهذا ترى التشبيهات التى هجرت الى غيرها بفعل الزمن وتطوره قد استمدت ، من عادات ومرائى محـدودة ، ومحصورة فى بيئاتها ، وهـذه التشبيهات ليست صـالحة للانتشـار والذيوع فى الأطوار المختلفة ، لأنها تفقد تأثيرها عند من لم تكن هـذه العادات والأشـياء المستمدة منها معاشة فى نفوسهم ، فهذه صورة صالحة لبيئة معينة ، وزمان معين(٢٩) ...

وهذا ما نبه اليه القاضى الجرجانى فى قوله : « وقد يكون فى هذا الباب ما تتسع له أمة ، وتضيق عنه أخرى ، ويسبق اليه قوم دون

---

(٢٨) عيار الشعر /١٦ ، ١٧ ـ تح عباس عبد الساتر ـ دار الكتب العلمية بيروت ، ط أولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م •

(٢٩) ينظر : النقد الأدبى الحديث /٢٣٧ ـ د/ محمد غنيمى هلال دار نهضة مصر ، والتصوير البيانى /١٥٨ ـ د/ محمد أبو موسى ط ثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م •

قوم ، لعادة أو عهد ، أو مشاهدة أو مراس ، كتشبيه العرب الفتـــاة الحسناء بتريكة النعامة ، ولعل فى الأمم من لم يرها ، وحمرة الخدود بالورد والتفاح ، وكثير من الأعراب من لم يعرفها وكأوصاف الفلاة ، وفى الناس من لم يصحر ، وسير الأبل ، وكثير منهم لم يركب» (٣٠).

وبهذا ترى كيف تغيرت نظراتهم الى عناصر التشبيه تبعا لهـذا التطور الذى حدث فى الذوق العربى بتطور الحياة ، وأخـذ الناس بأسباب الحضارة والمدنية فترق مشاعرهم ، وتصفو أحاسيسهم ... فتجد أثر ذلك بينا فى اختيارات على ابن ظافر الأذدى لعجـــائب التشبيهات ...

ـ فاذا نظرت رأيته قول ابن حمد يس الأندلسى فى تشـبيه الكئوس وقد ملئت خمرا وصفت ، بفتيات حسان يلبسن ثيـابا حمرا فى عرس ، وذلك فى قوله (٣١) :

وكأنمـا صـــور القنـانى اذا
ملئت الى لهواتهـــا خمـــرا
بيض الحســان وقفن فى عرس
لبســن غــلائلا حمـــرا

= متأثرا بالزمن وتطوره ، وما استجد فيـه من عادات ؛ لأن

---

(٣٠) الوساطه بين المتنبى وخصومه /١٧٣ ـ تح/ هاشم الشاذلى ـ دار احياء الكتب العلمية .

(٣١) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات /١٣٨ ـ تح د/محمد زغلول سلام ، د/ مصطفى الصاوى الجوينى ـ دار المعارف .

الأندلسيين كانوا يميلون الى أن تلبس الفتيات ثيابا حمراء في الأعراس ، على خلاف العادة عندنا ـ الآن ـ من لبس البياض ...

وهكذا تجد في هذا الكتاب ـ كما سيأتي ـ صورة صادقة لأذواق العصور المختلفة في بلاد الوطن العربي : شرقيه وغربيه ، ومظاهر الحضارة ، وأذواق الناس(٣٢) ...

هذا ويمكن تصنيف عامل الزمن ـ في ايثار أحد عناصر التشبيه وما يترتب على ذلك من هجر بعض العناصر واستبدالها بغيرها ، أو استجادة بعضها الآخر والاكثار منها ؛ نظرا لملاقاتها مع الزمن = الى

أولا ـ هجر ما لا يلائم نفس المحدث :

تنبه القدماء الى أثر التشبيه وموقعه من النفس ؛ ومن ثم هجرت بعض التشبيهات استبشاعا لها ـ كما يقول ابن رشيق ـ وان كانت هي في نفسها بديعة ...

ـ فمن التشبيهات التي تركها المولدون قول امرىء القيس(٣٣) :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك اسحل

فالتشبيه ـ من حيث الشكل ـ دقيق ؛ اذ البنانة ـ لا محالة ـ

---

(٣٢) مقدمة غرائب التنبيهات /٢٢ ٢٣ ، ٣٣ .

(٣٣) من معلقته التي مطلعها : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ـ ديوانه/١٧ ـ تح /محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ط خامسة ، وشرح المعلقات السبع للزوزني /٣١ ـ دار الجيل بيروت .

شبيهة بالأسروعة وهى دودة تكون فى الرمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا(٣٤) ، واياها عنى ذو الرمة فى قوله :

خراعيب أمثـــال كأن بنانها بنات النقا تخفى مرارا وتظهر

فهى كأحسن البنان : لينا ، وبياضا ، وطولا ، واستواء ، ودقة ، وحمرة رأس ، كأنه ظفرقد أصابه الحناء ، وربما كان رأسها أسود ..

فهذا التشبيه قـد استوفى الشكل جميعه وأتى على كل أجـزاء المشبه ، قوة ، وضعفا ، وحالا وهيئة .... بيـد أن نفس الحضرى تكرهه وتأباه ، ومن ثم خولف الى غيره بفعل الزمن ...

وعلى هـذا تجد نفس الحضرى اذا سمعت قول أبى نواس فى صـفة الكأس :

تعاطيـكها كف كأن بنـــانها
اذا اعترضتها العين صف مدارى

أو قول على بن العباس الرومى :

ســقى الله قصرا بالرصافة شـاقنى
بأعلاه قصرى الدلال رصـــافى
أشـــار بقضبان من الدر قمعت
بياقيت حمرا فاستباح عفافى

أو قول عبد الله بن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومه أثمارهن عقيق

---

(٣٤) ينظر : اللسان ٣//١٩٩٥ (س ر ع) .

= كان ذلك أحب اليها من تشبيه البنـــان بالدود فى بيت امرىء القيس ، وان كان تشبيهه أشد اصابة(٣٥) ...

وعلى هذا تجـد نفـور نفس الحضرى من الدود ، واستبشاعه اياه ، بفعل الحضارة هو ما دعى الى ترك التشبيه ، مع اصابته الشكل ودقته فى ابراز الهيئة ...

ـ كذلك عاب القاضى(٣٦) الجرجانى قول أبى تمام :

أأترك حاجتى غـرض القـوانى
وأنت الدلو فيهـا والرشـــاء

وقـــوله :

ضـــاحى المحيـــا للهجـــير وللقنا
تحت العجـــاج تخـــاله محـــراثا

وقـــوله :

تثفى الحـــرب منـــه حين تغـــلى
مراجلهـــا بشـــيطان رجيم(٣٧)

فهو يجعل الممدوح ـتارة دلوا ، وتارة محـــراثا ، ومرة رشـــاء ، وأخرى تنينا وشيطانا رجيما ...

---

(٣٥) العمدة ١/٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

(٣٦) ينظر : الوساطة /٦٢ .

(٣٧) ديوان أبى تمام ١/٣٣ ، ٥٠ ، ٣/١٦٢ ـ تح / محمد عبده عزام ـ ط ثانية ، دار المعارف .

فانظر كيف تباعد المشبه به عن النفس حتى نفرت منـــه ، ولم يتلاقى مع مقام المدح ، لأن أبا تمام حضرى محدث فلا يحسن منـــه المجىء بمثل تلك التشبيهات ...

ـ وعلى هـــذا تجد القوم ينظرون الى قول على بن الجهم(٣٨) :

أنت كالكلب فى حفـــاظك للود
وكالتيس فى قـــراع الخطـــوب

على أنه من أثر البيئة وعامل الزمن .. ولذلك قبل منه ... أما اذا تحضر وسكن الرصافة فانه يأتى بمثل قوله :

عيون المهـــا بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى(٣٩)

فانظر كيف تغيرت عناصر تشبيهاته وتأثرت بفعل التحضر ، وكيف اختلفت فى المرحلتين فهو ـ فى التشبيه الأول ـ بدوى فظ .. وفى الثانى حضرى رقيق ...

ـ وقد يكون التشبيه مستحسنا فى بعض الأوقات لاتصاله بعادة أهله .. ترى ذلك فى قول عروة بن الورد(٤٠) :

وانى وان عشرت من خشـــية الردى
نهـــاق حمـــار اننى لجـــزوع

---

(٣٨) ديوان على بن الجهم /١١٧ ، ١٤١ ، ٢٢٠ تح/ خليل مردم بك دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

(٣٩) المرجع الســـابق .

(٤٠) ديوان عروة /٤٦ ، وفيه « نهاق الحمير » .

فالتشبيه فى بيت عروة متصل بعادة فى الجاهلية فى « أنه اذا دخل أحدهم أرضا موبئة يضع يديه على قفاه وينهق نهيق الحمار لينجو من وبائها ، زعموا أن التعشير نهاق عشرة أصوات فى دفعة واحدة »(٤١) ...

فاتصال التشبيه بتلك العادة يجعله مستحسنا بذلك الوقت ، لا يتعداه الى غيره ، ومن ثم استقبح التشبيه به فى الصوت واستنكر ، فعد من أنكر الأصوات(٤٢) ...

ـ ولهذا ترى الأصمعى يعيب ـ بين يدى الرشيد ـ قول النابغة(٤٣) :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العود

على أنه تشبيه لا يلحق ، ولا يشق غبار صاحبه ، ولم يجد فيه المطعن الا بذكر السقيم فانه رغب عن تشبيه المحبوبة به ، وفضل عليه قول عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها وسط النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم

---

(٤١) صبح الأعشى ـ القلقشندى ١/٤٠٧ ـ ط الأميرية ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م .

(٤٢) فى قوله سبحانه ـ : « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » لقمان ١٩/ .

(٤٣) ديوانه ٩٣/ .

وســنان أقصــده النعاس فرنقت
فى عينــه ســنة وليس بنــائم

وبهــذا ــ أى بمــراعاة جانب النفس ــ ترى اسراع القلب الى بيت عــدى ، حتى يرى القاضى الجــرجانى أنه « زاد به على كلّ من تقدم ، وسبق بفضــله جميع من تأخــر ، ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له ... لم أرنى بعدت عن الحق ... »(٤٤) .

ــ كذلك استقبح قول الآخر ــ يصف روضا ــ :

كأن شــقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدمــاء

فهذا وان كان تشبيها مصيبا فان فيه بشاعة ذكر الدماء ، ولو قال من العصفر ــ مثــلا ــ أو ما شــاكله لكان أوقــع فى النفس وأقرب الى الأنس ...(٤٥) .

ــ وكذلك تشبيههم الخمر فى حبابها بسلخ الشجاع ، وما جرى هذا المجرى من التشبيه فانه وان كان مصيبا لعين الشبه ، فانه غير طيب فى النفس ، ولا مســتقر على القلب ، ومن ذلك قــول أبى عون الكاتب :

تلاعبنا كف المزاج محبة لها وليجرى ذات بينهما الأنس
فتربد من تيه عليها كأنها غريرة خدر قد تخبطها المس

---

(٤٤) العمدة ١/٣٠١ .
(٤٥) العمدة ١/٣٠١ .

فالتشبيه وان كان مصيبا في الشكل والهيئة الخارجية ، الا أنه بعيد عن النفس فتكرهه وتأباه .. ومن ثم ترك الى غيره ..

يقول ابن رشيق : « فلو أن في هذا كل بديع لكان مقيتا بشعا ، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئا يشبه بزبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس ؟ !

ـ كذلك تشبيه صوت القينة بالذباب في قول أبي محجن الثقفي :

وترفع الصوت أحيانا وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الفرد

فأي قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟(٤٦) .

كذلك تجد في تشبيه الخمر بالدم ـ في قول الشاعر ـ نفورا وبعدا في النفس :

عقار كماء النئ ليست بخطمة ولا خله يكرى الشروب شهابها

يقول ابن قتيبة : .. كماء النئ أراد خمرا كالدم .. »(٤٧)

مراعاة الجانب النفسي بين المحدثين والقدماء :

سبق القول كيف استقبح التشبيه عند القدماء على أساس التطور الزمني مما نتج عنه اختلاف الطباع ، وتغير النفوس ... مما ترتب

---

(٤٦) ينظر : العمدة ١/٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤٧) كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ١/٤٣٩ ، ٤٤٠ ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ـ بيروت .

عليه ترك المولدين لتشبيهات القدماء ... وهـذا يدلّ على تنبه القدماء الى الجانب النفسـى فى التشـبيه ، وأنه مهما شاكل الشكل الشكل ومائله فى جميع صورته ، الا أنه يشترط التطابق النفسى ...

ـ بل ان ذلك لم يكن عند العلماء فقط ، بل تعداه الى الممدوحين ، يذكر قدامة أن عبيد الله بن قيس الرقيات أنشد عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فـوق مفرقه على جبـين كأنه الذهـب

فغضب عبد الملك .. وقال : فقد قلت فى مصعب :

انما مصعب شـهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم ، وجـلاء الظلم .. وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة .. »(٤٨) .

فجمال التشبيه فى بيت عبيد الله بن قيس الرقيات فى مصـعب مبنى على أنه « أمس بالنور العلوى ، وأشد اتصالا بالله الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض »(٤٩) .

ـ ولهذا التفت الخلفاء الى سمو التشبيه ، ورقيه ، ووقعه على النفس ، يقول عبد الملك ابن مروان : « تشبهوننا بالأسـد والأسـد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبـل والجبـل أوعر ، ألا قلتـم كما قال أيمن بن خزيم فى بنى هاشم :

---

(٤٨) ينظر : نقد الشعر /١٨٤ ، وكتاب الصناعتين /١١٤ .

(٤٩) النقد الأدبى الحديث /١٧٣ هامش (٢) .

نهـاركم مكابدة وصـوم وايلكم صـلاة واقتـراء
أأجعلكم وأقـواما سـواء وبينكم وبينهـم الهـواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأعينهم وأرؤسهم سـماء

ـ ويقول المنصور : من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فانما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحية فانما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل ، فانما هو حجـر أصم ، ولا بالبحـر فانما هو غطـامط لجب ... »(٥٠) .

● فانظر كيف عنى القدماء بتطور عناصر التشبيه على أساس من النفس ... ثم تجـد ـ من بنى جلدتنـا ـ(٥١) من يعيب القدماء ـ جملة ـ فى عنايتهم بالشكل وحده من غير احساس وتخيل ، فالمبرد ـ عندهم ـ يعجب بالتشبيه على أساس التوافق الذهنى ، فى الهيئة المجردة من غير أن ينظر الى التشبيه من الجانب النفسى ... وهكذا الشأن عند العسكرى ، والجرجانى والحاتمى ...

وعندما يصطدمون بالتفاتات ابن رشيق النفسية .. ، فان « مثل هذه النظرة لم تكن تستـند ـ فى الحقيقـة ـ الى أى وعى بالقيمة النفسية للتشبيه ، بل كانت تستند الى الولع السـاذج بحشد مظاهر الترف فى التشبيه ، والنفور من مظاهر البداوة . قد يكون ذلك قرينا

---

(٥٠) فن التشبيه /٢٥٠ ـ ٢٥٢ .

(٥١) ينظر : الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى د/ جابر عصفور /١٩٩ وما بعـدها ط دار المعارف ، ومن بلاغة القرآن د/ أحمـد بدوى /١٨٧ .

للتحضر الساذج ، وقد يكون تعويضا عن احساس بالفقر ، وتعبيرا عن أحلام المحرومين الراغبين فى الغنى والثراء ... »(٥٢) الى آخر هذا الهراء الذى يطنطن بالأحلام واللاشعور ، ويندب زمنا وعصرا لم يلتفت الى مثل ذلك ...

ويستدل هؤلاء بذلك باعجاب القوم ببيت ابن المعتز :

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وبأن الامام قد استجاد قول ابن الرومى(٥٣) :

بذل الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الاثمار كل الآباء

بأنهم جعلوا الجامع بين الأمرين : جمال المنظر وتفاهة المخبر ، وهو جامع عقلى ، لا يقوم على تشبيه فنى صحيح ، وذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار ، لا ينطبع فى نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة ورقها ، وحسن ازهارها ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمر يجنيه أو لا يكون ...

وهكذا فما اعتمد عليه القدماء — عندهم — فى عقد التشبيه هو العقل ، فجعلوه رابطا بين أمرين ، مفرقا بينهما ، بينما أغفلوا وقع الشىء على النفس وشعورها به سرورا أو ألما ...(٥٤) .

---

(٥٢) الصورة الفنية /٢٠١ .
(٥٣) ينظر الأسرار /١٤٩ .
(٥٤) من بلاغة القرآن/١٨٧ ، والنقد الأدبى الحديث/٤١٨ ومابعدها

● وهذه نظرة ضيقة الى نتاج القوم ومضمون كلامهم ومرامية ــ ولعل دراسة جديدة تكشف ــ عن طريق الاستقصاء ــ عن الأثر النفسى فى التراث البلاغى لاسيما فى مدرسة السكاكى ــ فان التحقيق ينقض ذلك من أساسه ٠٠ ولعل نظرة واحدة الى الرمانى وابرازه الأثر النفسى ٠٠٠ تكشف عن زيف تلك الدعوى ٠٠

فقد امتد تحليل الرمانى الى بيان الأثر النفسى لكل صورة من صور التشبيه التى تعرض لها ، وكأنه بذلك يومىء الى أن ما يحدثه التشبيه فى نفس متلقيه ، انما هو الغرض الأسمى من استخدام هذه الوسيلة البيانية ٠٠(٥٥) ٠

يقول فى قوله سبحانه : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ٠٠ »(٥٦) ٠ فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجربه العادة الى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى شدة الاعجاب ، ثم فى التغيير بالانقلاب ، وفى ذلك الاحتقار للدنيا ، والتحذير من الاغترار بها والسكون اليها ٠٠ »(٥٧) ٠

---

(٥٥) ينظر : بيان التشبيه /٩٨ ٠

(٥٦) الحديد /٢٠ ٠

(٥٧) النكت فى اعجاز القرآن للرمانى /٨٤ ــ « ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن » تح محمد خلف الله أحمد ، ود/ محمد زغلول سلام ــ دار المعارف ٠

ـ وتعميم الحكم فى تلك القضية هى التى أوقعت المحدثين(٥٨) فى الخطأ ، فأنك رأيت كيف رد ابن رشيق تلك التشبيهات السابقة ـ مع تطابقها فى الصورة تطابقا تاما ـ لمخالفتها لما فى النفس وللتطور الزمنى ..

وكيف رأيت الأصمعى يفضل بيت عدى بن الرقاع العاملى ، على بيت النابغة لملاقاته طبائع العصر ومداخل نفوسهم ...

وهكذا نجد البلاغيين يستقبحون التشبيه أو يستجيدونه تبعا لموافقته لطابع نفس أهل كل عصر .. ولو كان الغرض مضاهاة أحمر على أحمر لما رأيت المحدثين يهجرون تلك التشبيهات القديمة لمخالفتها لطبيعتهم ...

ـ ثم ان من الخطأ أن يقضى فى الشعر العربى والبلاغة العربية قضاء مبرما ، ويبنى ذلك على بيت واحد أو شطر بيت ، أو جملة أبيات ليست من مختاره ، من غير اعمال الفكر ، وترديد النظر فى سياق كل ومقامه ، سواء من القصيدة أم من حال الشاعر ونفسه ، فربما تجد فى البيت شيئا وراء ما وجده هؤلاء المحدثون ، أو شيئا فى رأى البلاغيين القدامى لم يفهم على وجهه ..

ـ ثمة شىء آخر ، وهو أنك تجد كثيرا من التشبيهات الجيدة عند البلاغيين مما خلت من عنصر النفاسة .. كقوله ـ سبحانه ـ :

---

(٥٨) ينظر من مواطن الزلل : تعميم الأحكام ، وقطع الكلمة عن سياقها ، من كتابنا : مناقدة ابن سنان للمتنبى بين التحليل البيانى والعمود الشعرى ص ٣ .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »(٥٩) • ولو كان التشبيه يقاس بنفاسته ــ كما فى مآخذ المحدثين ــ لأسقطوا هذا التشبيه وما شابهه ، لأن المشبه به غير نفيس •••(٦٠) •

ــ ثم ان تشبيهات ابن المعتز المعيبة ــ عندهم ــ ربما تكون مستمدة من بيئة الشاعر ونفسه ، يقول الدكتور غنيمى هلال : « وقد يكون فى هذا ــ أى تشبيه ابن المعتز للهلال بزورق من فضة •• ــ دلالة نفسية على رغبته فى الهرب من عالم الواقع ، أو دلالة على بيئة الترف التى ألفها ابن المعتز ، ولكن هذه الدلالة النفسية لا شعورية ••(٦١) •

كما أن ما عيب من استجادة البلاغيين(٦٢) لبيت أبى نواس فى : « جنان » المغنية الشهيرة ، بأنه لم يراع مشاعر الحزن والأسى ، فجاء تشبيهه غير مطابق لنفسها فى قوله :

تبكى فتذرى الدمع من نرجس وتلطم الورد بعناب

مرده الى حالته النفسية هو ، فلم يكن أبو نواس عاشقا يحتم عليه المشاركة فى مشاعر موصوفه وأحزانه ، وانما كان عاشقا الجمال الذى زاده هذا الموقف اشتعالا •• فالتشبيه مبنى على الحالة

---

(٥٩) الجمعة /٥ •
(٦٠) ينظر : التصوير البيانى /١١٨ وما بعدها •
(٦١) النقد الأدبى الحديث /٤٢١ •
(٦٢) ينظر : الصورة الأدبية /٤٨ وما بعدها ــ ١٩٥٨م ــ مكتبة مصر

التى كان عليها الشـــاعر ...(٦٣) ومراعاة جانب المتكلم فى النظم العالى غرض جليل ..

ثانيا : تعدد معانى التشـــبيه :

ذكر ابن الأثير(٦٤) أن باب الابتداع للمعـــانى مفتوح الى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ .

ومبنى هذا هو اختلاف عناصر الوصف باختـــلاف الزمن ، يقول ابن رشيق : « وليس بالمحدث من الحاجة الى أوصاف الابل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحـــمر الوحش ، والبقر ، والظلمـــان ، والوعول ، ما بالأعراب وأهل البادية ، لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات ..

والأولى بنا ـــ فى هـــذا الوقت ـــ صـــفات الخمر ، والقيـــان ، وماشاكلهما ، وما كان مناسبا لهما ، كالكؤوس ، والقنانى ، والأباريق ، وتفاح التحيات ... ، ثم صـــفات الرياض ، والبرك ، والقصـــور ، وما شاكل المولدين .. »(٦٥) .

فانظر كيف اختلفت عناصر التشبيه باختلاف الزمان ، ولهذا تجد التشبيهات العجيبة عند على بن ظافر الأزدى مطابقة ـــ تماما ـــ لحال عصره ...

ـــ فتجد تشبيه الفوارات (النافورة) فى قول الشاعر :

---

(٦٣) ينظر : بيان التشبه /١٦٨ .
(٦٤) المثل السائر ٣/٢١٩ .
(٦٥) العمدة ٢/٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وفوارة ردت على السحب ماءها وزاد على الاخبار عنها عيانهـا
اذا ما تراءتهـا العيون حسـبتها قناة من البلـور فيها سـنانها

وتجد قـول يعلى بن ابراهيم الادريسى فى صور نحاس تقذف الماء من أفواهها :

وتنبذ المـاء من أفواهها صـور
منهـا وتحسـبها والمـاء مـرتدف
تشـاءبت فى أوان القـر واحتفلت
أنفاسها والهوى فى جسمها كثف(٦٦)

وهكذا تجد تشـبيهات مبتكرة ومبتدعة فى معانيها ، سـواء فى تشبيه الأنهار عند تجعدها يمر الريح عليهـا ، أم فى تشبيه الأنهـار الهادئة ، أم فى تشبيه الأزهار .. أم فى تشبيه أنواع المآكل(٦٧) .

وأصل هذا أن الشاعر يشبه ما يرى وهو يتجـدد بتجدد الأيام والليالى ، ويتجدد حال الشاعر من نعمة وبؤس ، ذكر ابن رشيق ما يدل على ذلك عندما ليم ابن الرومى فقيل له : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر اليـه كزورق من فضـة قـد أثقلتـه حمـولة من عنبر

فقال : زدنى ، فأنشده :

---

(٦٦) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات /٧٣ ، ٧٤ .
(٦٧) السابق /٥٩ ـ ١٥٦ .

كان آذريونهـــا والشمس فيه كالية
مداهن من ذهـــب فيهـا بقايا غالية

فصاح : واغوثاه ، يالله ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيتـه لأنه ابن الخلفـاء ، وأنا أى شيء أصف ، ولكن انظروا اذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى ، هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيـدى السـحاب مطـارفا
على الأرض دكنا وهى خضر على الأرض
يطـرزها قـوس السـحاب بأصـفر
على أحمـر فى أخضر وسـط مبيض
كأذيـال خـود اقبلت فى غـلائل
مصـبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى من قصيدة فى صـفة الرفاقة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتهـا فى كفـه كرة وبين رؤيتهـا قـوراء كالقمـر
الا بمقدار ما تنـداح دائـرة فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر (٦٨)

ويمكن تقسيم المعانى المسـتجده فى التشبيه ، تبعا للحضـارة وما استجد فيها من صور واحداث جديدة ، مما نتج عنه اختلاف النظر الى مواطن القبح والحسن الى مايلى :

---

(٦٨) العمدة ١/٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(أ) ما يتصل بصفات النساء :

وذلك كتشبيه النساء بموج البحر والاسطوانة ، وذراع الناقة ، وهذا مبنى على استحباب السمن فى النساء — قديما — وعن ذلك آية الجمال والملاحة ، وسمة النعمة والغنى ، وشارة الترف والرفاهية ، ومن ثم شبه عمرو بن كلثوم ذراعى محبوبته بذراعى الناقة الطويلة ، وشبه — ساقيها بالاسطوانتين فى قوله — فى معلقته(٦٩) .

تريك اذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
ومأكمة يضيق الباب عنها وكشحا قد جننت به جنونا
وساريتى بلنط أو رخام يدن خشاش جليبها رنينا

ويقول آخر :

وماجت كموج البحر بين ثيابها يميل بها شطر ويعدلها شطر

فوجه الشبه هو الضخامة ، لأن ذلك دليل النعمة ...

— وقد تغير المشبه به تبعا لتطور الزمن وتغير المفاهيم ، فالنموذج — اليوم للمرأة العصرية أن تكون قليلة اللحم ، مجدولة رشيقة ، خفيفة الحركة ، كثيرة النشاط ... ولهذا غير أحمد شوقى المشبه به فى قوله :

والخصور واهية بالبنان تنجذب

---

(٦٩) شرح المعلقات السبع للزوزنى ١٦٩ ، ١٧٠ والعيطل : طويل العنق من النوق والمأكمة : رأس الورك ، والبلنط : العاج .

سـالت الأكف بهـا فهـى أغصـن نهـب

فشبهها بالأغصن فى الدقة والاستقامة(٧٠) .

ـ وكان أحسن الشعر ـ عندهم ـ هو الأسود الفاحم كما يقول المتنبى(٧١) :

وما خضـب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

ولذلك يشبهون الشعر بالليل بالسواد كما فى قول الشاعر :

الوجه مثل الصـبح مبيض والشعر مثل الليل مسـود
ضدان لمـا استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضـد

ومن ثم فقد استحسنوا الشعر الأسـود كما فى قول العديل بن الفرخ العجلى :

ألا يا اسلمى ذات الدماليج والعقد وذات الثنايا والفاحم الحـق

يقول المرزوقى : « والفاحم : الشعر الأسود الحسن »(٧٢) .

ـ ثم امتدت الفتوحات الاسلامية ، ورأى العرب الجركسيات ، والصقليات بوجوههن الشقر ، وشعورهن الذهبية ، وعيونهن الزرق ، فأنسوا بكل ذلك وفتنوا به ، ولهجوا بذكره ، فقال بعضهم يشبه شـعر محبوبته فى اصفراره بسنابل القمح :

---

(٧٠) فن التشبيه ٢/٢٤٠ ، ٢٤١ .
(٧١) شرح ديوان المتنبى ٤/٥٢ .
(٧٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٢/٧٢٩ ، ٧٣٠ .

وفرع يزين المتن يحكى اصـفراره
سنابل قمح لم يستم نضوجها(٧٣)

ويظهر ذلك كثيرا فى تشـبيهات أهـل الأندلس لكثرة امتزاجهم بسكانها •

(ب) تجديد المعانى بما استجد من أشياء :

وهذا مبنى على أن التشبيه ــ كما يقول ابن رشـيق ــ يقع على ما يـرى ، وتشـبيه ما عاين بما عاين أفضـل من تشبيهـه ما أبصر بما لم يبصر •••

ــ ويظهر ذلك فى تشبيه طرفه ابن العبد(٧٤) شق السفينة الماء بشق المغايل الترب بيده فى قوله :

يشق عباب المـاء حيزومها بهـا كما قسـم الترب المغايل باليـد

والمغايلة : لعبـة ، يخبئـون الشىء فى التراب ، ويقسـمونه قسمين ، ويسألون أيهما هو(٧٥) •

شبه شـق السفينة بصدرها المـاء ، بشق المغايل بيده التراب المجموع • وهذا الوصف يدلنا على أن هذه السـفينة صغيرة الحجم ،

---

(٧٣) فن التشبيه ٢/٢٣٨ ، ٢٣٩ •

٧٤ ديوانه /٢٠ دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م ، وشرح المعلقات السبع /٦٣ •

(٧٥) ينظر : المقاييس لابن فارس ٤/٤٦٧ •

هينة السير ، ساذجة الصنعة ، ضعيفة القوى ، حتى ان شقها الماء كشق المغايل التراب(٧٦) .

ثم تتطورت السفينة ، فتراها فى التشبيه الأندلسى أقوى وأسرع، فهى طيارة ، وذلك فى قول ابن حمد يس يصف سفينة :

طيارة ولها فرفاء واعجبا ... اذ لا ترقهما حتى يزقاها
كأنما البحر عين وهى أسودها ... بسبحها فيه والعبران جفناها

فانظر كيف دل على سرعتها فى قطع ما بين جانبى النهر بتشبيه سرعتها بسرعة تحرك سواد العين فى العين ..

وهذا مأخوذ من قول السلامى يصف السفينة بالسرعة :

وميدان تجول به خيول ... تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به الى اللذات طرفا ... له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الأرض وجه ... ودجلة ناظر وهو السواد(٧٧)

... ثم ترى السفينة محكمة لا تتأثر بالأمواج حتى كأنها عقرب يدب على زجاج فى قول الشاعر :

كأنها فى غامر الأمواج ... عقارب دبت على زجاج

— وأخذ على بن ظافر هذا المعنى وزاد عليه ، فقال فى صفة نيل مصر :

---

(٧٦) فن التشبيه ٢/٢٣٧ .
(٧٧) غرائب التنبيهات عل عجائب التشبيهات /٧٢ .

فكم حاكة تجرى عليه وروس وكم من عشارى(٧٨) عليه وقارب
كفرخ زجاج أزرق متجعد جرت فوقه الخوف سود عقارب(٧٩)

... ثم تكر الأعوام ، ويتغير الزمن ، وتقبل دولة البخار ، وتستحيل السفن مدنا عائمة على اليم ، تختال فوقه اختيالا ، فتقطع المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة ، غير مبالية بغضب الهواء ولا الماء ، فتسمع الشيخ حمزة فتح الله يقول :

تجرفى اليم أزيالا مصبغة كالخود تختال فى أذيال جلباب

ـ ثم يأتى شوقى ، فيصف ما أمدتها به الحضارة والعلم من أسباب الراحة والترف فيقول :

والفلك مشرقة الجوانب فى الدجى
يبدو لها ذيل من الأنوار
بينا تخطر فى لجين مائج
اذ ينثنى فى عسجد زخار

ـ ثم يأتى حافظ فيصف قوة مراسها ، وشدة جلادها للبحر الهائج المائج ، فيقول :

تترامى بجؤجؤ لا يبالى
أمياه تحوطه أم صخور
أزعج البحر جانبيها من الشدم
فجنب يعلو وجنب يغور

---

(٧٨) حاكة وروس وعشارى : أنواع من السفن .
(٧٩) غرائب التنبيهات /٧٢ .

وهو آنا ينحـــط من علو كالسيل
وآنا يحوطهـــا منـــه ســـور
وهـــى تزور كالجـــواد اذا مـــا
ســـاقه لطعـــام ندب جســـور

فسفينة طرفة التى احتفى بذكرها فى معلقته لا تعد شيئا بجانب هـــذه السفن الضخمة التى وصفها هؤلاء الشعراء المحدثون(٨٠) ...

ولهذا كان المشبه به ــ فى قول طرفة ــ كما قسم الترب المغاليد باليـــد ــ لا يصلح لتشبيهات السفن بعده ؛ نظرا للتطور الذى حدث فيهـــا ...

ــ وقد يكون فى ترك التشبيه مراعاة عادة جارية فى وقته ... واستجد ما يغايره فترك الى غيره ، وهـــذا ما سماه القلقشندى(٨١) : « أوابد العرب » ، وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية ، بعضها يجرى مجرى الديانات ، وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات وبعضها يجرى مجرى الخرافات ، وجاء الاسلام فأبطلها ..

ــ ومن ذلك تعليق الحلى على السليم (الملسوع) كانوا اذا لسع فيهم انسان علقوا عليه الحلى من الأساور وغيرها سبعة أيام ، ويمنع من النوم ، فيفيق وعلى هذا ورد التشبيه فى بيتى النابغة(٨٢) :

فبت كأنى ساورتنى ضـــئيلة
من الرقش فى أنيابها السم ناقع

---

(٨٠) فن التشبيه ٢/٢٣٧ ، ٢٣٨ .
(٨١) ينظر : صبح الأعشى ١/٣٩٨ .
(٨٢) ديوان النابغة الذبيانى /٣٣ ، ٣٧ .

يسهد من وقت العشاء سليمها
أحلى النشاء في يديه قماقع

فالتشبيه دقيق من حيث الأثر النفسي ، ووقع وعيد أبي قابوس عليه ، بيد أن صورة المسوع وقد علق عليه الحلى سبعة أيام ، ويمنع من النوم فيهن ... قد تغيرت بفعل الزمن ...

ـ كذلك عنصر المشبه به في قول النابغة(٨٣) :

وكلفتني ذنب امرىء وتركته
كذي العر يكوى غيره وهو راتع

فهو متصل بعادة أبطلها الإسلام ، فكانوا يزعمون أن الابل اذا أصابها « عر » ـ وهو الجرب ـ فكووا صحيحا الى جانبه ـ ايثم رائحته ـ برىء ، وربما زعموا أنه يؤمن منه العدوى(٨٤) ...

ـ ومما غيرته الأحداث التاريخية ، وكر الجديدين ، تبعا لاختلاف النظر قول عنترة(٨٥) :

صعل يعود بذي العشيرة بيضه
كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

يقول ابن رشيق : فشبهه بعبد طويل عليه فرو أصلم ، أي : قصير الذيول وانما خص الفرو لأنهم كانوا يلبسونه مقلوبا ، وجعله عبدا

---

(٨٣) المرجع السابق .

(٨٤) صبح الأعشى ١/٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٨٥) ديوان عنترة /١٢١ ـ المكتبة الثقافية بيروت ، وشرح المعلقات ٢٠٢ .

البياض ساقيه وعنقه واشرابهما الحمرة ، يعنى صفات الروم ، ولم تكن العبيد فى ذلك الوقت الا بيضا »(٨٦) .

فالتشبيه فى البياض والحمرة وهـذا يغاير التشبيه بالعبد فى الوقت الحالى ؛ لأن أكثر العبيد كانوا يجلبون من أفريقيا .. فهـم سود ، بخلاف العهد فى وقت عنترة ــ كما يرى ابن رشيق ــ فانهم كانوا يجلبون من الروم .

ــ كذلك قـد يشتهر أحد عناصر التشبيه فى بعض الأوقات ... ثم يختفى فى بعضها .. وقد يكون للبيئة أثر فى ذلك ..

تجد ذلك بينا فى استكثار المتنبى فى تشبيه الخيل ودورانها فى شعره على عنصرى التشـبيه جميعا ؛ كأنه مظهر من مظـاهر فتوته ، وقوته ، واندفاعه ، يقول ابن رشيق : « وقد ذكر أبو الطيب الخيـل ــ أيضا ــ فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الابل ؛ لمـا يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل ، وتعاطى الشجاعة ، فقال يذكر قدومه الى مصر على خوف من سيف الدولة(٨٧) :

ويوم كليل العاشـقين كمنتـــه
أراقب فيـه الشمس أيان تغرب
وعينى الى أذنى أغر كأنـــه
من الليل باق بين عينيه كوكب

---

(٨٦) العمدة ٢/٩٩ ، ١٠٠ .

(٨٧) تنظر الأبيات فى الوساطة /١٠٨ .

وأصرع أى الوحش فقيتــه به
وأنزل عنــه مثــله حين أركب
وما الخيل الا كالصديق قليــلة
وان كثرت فى عين من لا يجرب

وبهذا تجد استكثار المتنبى من ذكر الخيــل ودورانها فى تشبيهه دلالة على قوة نفسه ... مرتبطا بزمنه ، ولهذا لا يكثر فى تشبيههم ؛ لأن مركبهم البحر ... ، يقول : « وليس فى زماننا هــذا ، ولا من شرط بلدنا ــ خاصة ــ شىء من هــذا كله ، الا ما يعد قلة .. »(٨٨) .

ــ ويدخل فى هــذا ــ أيضــا ــ ما اســتجد من معارف وفنون أثرت فى ايثار المشبه به ، كما فى قول المتنبى فى عضد الدولة(٨٩) .

وأنت الشمس تبهر كل عين فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشــة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاســدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادى ولا ورثا سوى من تقتلان
وكانا ابنا عــدو كاثراه له ياءى حروف أنيسيان

فقوله : « له ياءى حروف أنيسيان » فى المشبه به مما أثر فيــه معرفة التصغير لأنه أراد تشبيه أبنــاء عــدوه الذى كاثره بهما بياءى أنيسيان فى السقوط والخسة(٩٠) .

---

(٨٨) العمدة ١/٢٢٩ ، ٢٣٠ .
(٨٩) شرح ديوان المتنبى ٤/٣٩٥ .
(٩٠) المثل السائر ٣/٢٢١ .

أى : يزيدان فى عدد الحروف وينقصان من معناه ...

وكذلك ياء التصغير ، فانها تزيد فى اللفظ ، حيث يزداد حروف الكلمة حرفا ، ولكنها تؤثر فى المعنى نقصا(٩١) ..

أى ان زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير ؛ فانها زيادة نقص ، وخسة ووضع حسب ..

ـ ويدخل فى ذلك استخدام ألفاظ المتكلمين والنحويين ـ وان كان ابن سنان(٩٢) قد استقبحه ـ ، وذلك كقول الشاعر :

مودة ذهب أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

وقوله ـ أيضا ـ (٩٣) :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلعب الأفعال بالأسماء

فالمشبه به فى الموضعين من أثر النظر فى علم الكلام والنحو ، فالجوهر والعرض من ألفاظ اهل الكلام الخاصة بهم ، ولم تكن معروفة فى العصر الجاهلى .. وكذلك المشبه به فى البيت الثانى فهو نتيجة نشأة علم النحو ...

ـ ويدخل فى هذا ما استجد ـ بفعل الحضارة ـ من أنواع الحلوى المختلفة ، فأتى الشعراء بتشبيهات تلائم تلك الحالة ، فمن ذلك قول الطغرائى فى القطائف :

---

(٩١) ينظر : شرح ديوان المتنبى ٤/٣٩٥ ، والمثل السائر ٣/٢٢١ .

(٩٢) ينظر : سر الفصاحة /١٦٦ ، ١٦٧ .

(٩٣) البيتان لأبى تمام ديوانه ١/٤٥ ، ٤/٤٦٦ .

شربن من الحلو حتى روين وغرقن فى لجه الأصغر
كأن الكواعب قد أبرزت من الخدأذ تنسبح فى الكوثر

وقول ابن قلاقس ــ فى القطائف ــ أيضا ــ :

أحسن من وصف ديار الطائف ومن خليط سار فى متالف
بديع مرأى هذه القطائف كأنها فى عين كل واصف
قد صورت من أبيض المناشف(٩٤)

وهكذا تصوير جفنة(٩٥) الطعام بما عليها من صنوف طعام مستحدثة بفعل الرفاهية التى استجدت ، نتيجة لتكاثر النعيم .. فمن ذلك قول نصر بن كشاجم :

ومن فراريج بماء الحصرم تصلح للحموم أو للمحتمى
قد سويت أكبادها ببيض وهى كمثل نرجس فى روض
وجاءنا فيها ببيض أحمر كأنه العقيق مالم يقشر
حتى اذا أتى به مقشرا أبرز من تحت العقيق الدررا
كأنه اذ حاز أصناف الملح أعاره تلوينه قوس قزح

وكقول بعضهم فى البسندود(٩٦) :

أقرصة هشة مدورة كأنها فى انقاء كافور
أحلى من الوصل ناله كلف معذب بالصدود مهجور
كأنها فى الصحاف مطبقة دراهم وسطها دنانير

---

(٩٤) غرائب التنبيهات /١٥٥ .
(٩٥) السابق /١٥٤ .
(٩٦) البسندود ، والدلينس : نوع من الحلوى .

وكقول بعضهم فى الدلينس(٩٧) هجاء :

دلينســا لا كنت من مطعم يا قذرا فى الطعم والريح
كأنمــا آكلــه قالــــع بثغره لصفة مجروح(٩٨)

فانظر كيف اختلفت عناصر التشبيه فى النظم تبعا لتطور الزمن ، واستحداث مظاهر جديدة للحياة لم تكن موجودة من قبل .. فشملها وصفهم وتشبيههم ؛ لأنه مبنى على الرؤية والاحساس ...

(ج) التوليد فى التشبيه :

وهو نوع من التجديد فى التشبيه ، وذلك بأن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيــه زيادة ..

ـ وذلك كما فى قول جرير(٩٩) يصف الخيل :

يضربن من مستطير النقع دامية كأن آذانها أطــراف أقلام

فقال عدى بن الرقاع يصف قرن الغزال(١٠٠) :

ترجى أغن كأن ابــرة روقــه قلم أصاب من الدواة مدادها

فولد بعــد ذكر القلم اصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى ؛ اذ كان القرن أسود ، ولذلك ورد أن جريرا حسده(١٠١) ...

---

(٩٧) المرجع الســابق .

(٩٨) ينظر : غرائب التنبيات /١٥٥ ، ١٥٦ .

(٩٩) ينظر : شرح ديوان جرير /٥٥٣ .

(١٠٠) من قصيدة مطلعها : عرف الديار توهما فاعتادها . الأسرار ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١٠١) ينظر : الأسرار /١٥٤ .

وقال العمانى الراجز بين يدى الرشيد يصف الفرس :

تخال أذنيه اذا تشـــوفا قادمة أو قلما محـــرفا

فزاد ذكر التحريف فى القلم ، وهو زيادة صفة(١٠٢) ٠

ـ كذلك تجد توليد المعنى فى التشبيه ، بزيادة حسنة فى قـــول لبيـــد(١٠٣) :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

يقول القاضى الجرجانى : « فأدى اليك المعنى الذى تداولتـــه الشعراء ، قال امرؤ القيس(١٠٤) :

لمن طلل أبصرته فشـــجانى كخط زبور فى عسيب يمان

وقال حاتم(١٠٥) :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتابا منمنما

ـ وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل(١٠٦) ٠٠

ومرجع الفضل فى تلك الزيادة التى اقتضـــاها التوليـــد ، بفعل

---

(١٠٢) ينظر : العمدة ١/٢٦٤ ٠

(١٠٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ١٢٩ ٠

(١٠٤) ديوان امرىء القيس /٨٥ ـ تح/ محمد أبو الفضل ابراهيم ط خامسة ـ دار المعارف ٠

(١٠٥) ديوان حاتم /٧٩ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ٠

(١٠٦) الوســاطة / ١٧٤ ٠

التطور ، فينتقى الشاعر من الصفات ما يليق بعصره .. ويترك ما غلط فيـــه الأول .. ، ثم يضيف أوصافا فى التشبيهات يقتضيها المقام ...

ـــ ولهذا تتفاضل التشبيهات تبعا لقدرة الشاعر على اضافة صفاته جديدة الى أحد عناصر التشبيه ، ولهذا فضل الامام بيت ابن المعتز :

مداهن من ذهب فيها بقايا غاليـــة

على قوله ـــ أيضا ـــ :

وحمل آذر بيونة فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

وذلك لأن الأول ينقص عن الثانى شيئا ، وذلك أن السواد الذى فى باطن الآذريونة الموضوع بازاء الغالية والمسك فيه أمران :

أحدهما : أنه ليس بشامل لها ..

والثانى : أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم فى قعرها ، أعنى أنه لم يستدر هناك ، بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شـــيئا من سكها من كل الجهات وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب المدهن ، اذا كانت بقيـــة بقيت عن الأصابع .

وقوله : « فى قرارتها مســـك » يبين الأمر الأول ، ويؤمن من دخول النقص عليه ، كما يدخل لو قال : « ككأس عقيق فيها مسك » ولم يشترط أن يكون فى القرارة ..

وأما الثانى من الأمرين ، فلا يدل عليـــه كما يدل عليـــه قوله : « بقايا غالية » وذلك أن من شأن المسك والشىء اليابس اذا حصل فى شىء مستدير له قعر ، أن يستدير فى القعر ولا يرتفع فى الجوانب

الارتفاع الذى تراه فى سواد الآذربيونة وأما الغالية فهى رطبة ، ثم هى تؤخذ بالأصابع ، واذا كان كذلك فلابد فى البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بصفة شبيهة بذلك السواد ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لا جرم له يملك المكان ، وذلك أصدق الشبه(١٠٧) .

— ومن التوليد فى التشبيه قول عمر بن أبى ربيعة ، وقيل : وضاح اليمن(١٠٨) :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

فقد نهج فيه قول امرىء القيس(١٠٩) :

سموت اليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وأخذه أبو تمام فقال :

سمو عباب الماء جاشت غواربه

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه(١١٠) .

— ومن ذلك التشبيه بالليل فى قول النابغة(١١١) :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع

---

(١٠٧) الأسرار / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٠٨) فى ديوان عمر بن أبى ربيعة // ١١١ — مط الهيئة المصرية .

(١٠٩) ديوانه / ٣١ .

(١١٠) ينظر : اعجاز القرآن للباقلانى // ٦٠ ، ٦١ ، والعمدة ١/٢٦٣ .

(١١١) المرجع السابق .

قال الأصمعى : أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة ، وأنشد البيت السابق ..

واتبعه الفرذدق ، فقال :

لو حملتنى الريح ثم طلبتنى لكنت كشىء أدركتنى مقادره

ثم أخذه الأخطل ، فقال :

وان أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وأخذه على بن « الجهم » فقال :

وما لامرىء حاولته عنك مهرب
ولو كان فى جوف السماء المطالع
بل هارب لا يهتدى لمكانه
ظلام ولا ضوء من الصبح طالع

وأخذه سلم الخاسر فقال :

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله
والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفه
فى كل ناحية ما فاتك الطلب

وأخذه البحترى ، فقال :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن
ينجيهم من خوف بأسك مهرب(١١٢)

---

(١١٢) ديوان النابغة / ٣٨ .

فقضلهم النابغة لأن تمثيله بالليل ــ كما يقول الامام عبد القاهر (١١٣) ــ للدلالة على أن حالة ادراكه وقد هرب منه حالة سخط ، فالصفة المسيطرة عليه ــ حينئذ ــ هى صفة الظلمة وشدة السخط ، مع مراعاة حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة ...

ــ ومن هذا ــ أيضا ــ قول الشاعر :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

وقول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

وقول أبى طالب المأمونى :

وفلا كآمال يفيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا (١١٤)

وهذا ــ فى الشعر الحديث ــ كثير ..

وهكذا تجد تشبيه المحسوس بالمعقول يبرز عند شعراء الدولة العباسية ؛ لأنه يعتمد على قلب الأشياء وتراسلها .. وهذا من أحسن الوصف كما يقول ابن رشيق : « أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا » (١١٥) . ولذلك قبل هذا النوع من التشبيه (١١٦) ...

---

(١١٣) ينظر : الأسرار // ٢٥٢ ، ٢٥٥ .

(١١٤) ينظر الأسرار / ٢٢٦ ــ ٢٣٣ .

(١١٥) العمدة : ٢/٢٩٥ .

(١١٦) ينظر : العمدة : ١/٢٨٨ ، ٢٨٩ .

وهـذا أصل الرمزية فى التشبيه لأنه يقوم على التخيل ، ويبحث عن المشبه ، فالألفاظ لا تدل على الأفكار والصور التى وضعت لهـا ، وانما تدل عليها دلالة بعيدة ومشتبهة ، فضلا عن كونها مبهمة ...

ـ وعلى هـذا تجـد الأذن والقلب قد وضـعا موضع العين ، والعكس ، فالأذن ترى ، والعين تسمع وتشم ...

يقول بشار فى حب « عبدة »(١١٧) :

فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى
فبالقـلب لا بالعين يبصر ذو اللـب
وما تبصر العينان فى موضع الهـوى

ويقول أبو تمام ـ فى وصف قصائده ـ (١١٨) :

يراها عيـانا من يراها بسـمعه
ويدنو اليها ذو الحجـا وهو شاسع
يود ودادا أن أعضـاء جسـمه
اذا أنشـدت شـوقا اليها مسـامع

فجعل السـمع يرى ، كما هو عنـد بشـار ... ثم تراه يجعل الأذن أنفـا تشم .

---

(١١٧) ديوان بشار : ١/٤٦٣ ، تح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية ١٩٧٦ .

(١١٨) ديوان أبى تمام : ٤/٥٩٠ ، ٥٩١ ، وانظر : شرح الخطيب التبريزى على البيت الأول : ٤/٥٩٠ .

(د) عامل التطور وأثره فى استجادة الرمز فى التشبيه :

يمثل عامل الزمن فى استجادة الرمز فى التشبيه عاملا قويا ؛ اذ قيل فى بعض الأوقات ورد فى بعضها ••• ثم صار مقياس الجودة فى بعضها الآخر •••

ومبنى الرمز فى التشبيه على التجريد القائم على تشبيه المحسوس بالمعقول ، فرفضه الرمانى وأبو هلال العسكرى ؛ لأنه لا يقاس المعروف بالمجهول ••

ووجه ذلك أن المشبه به يجب أن يكون أظهر من المشبه ، ولكون المعقول فرع المحسوس لأنه مستفاد منه(١١٩) •

ـ يقول أبو هلال : « وقد جاء فى أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال • بالفكر ، وهو ردىء ، وان كان بعض الناس يستحسنه ، لما فيه من اللطافة والدقة ، وهو مثل قول الشاعر :

وكنت أعز عزا من قنوع ... بعوضه صفوح من ملول
فصرت أذل من معنى دقيق ... به فقر الى معنى جليل

وكقول الآخر :

وندمان سقيت الراح صرفا
وأفق الليل مرتفع السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها
كمعنى دق فى ذهن لطيف(١٢٠)

---

(١١٩) ينظر : عروس الأفراح : ١/٣١٢ « شروح » دار السرور لبنان
(١٢٠) كتاب الصناعتين / ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، والنكت / ٨٢ وما بعدها •

فأخرج ما يقع عليه الحاسة الى ما لا يقع عليه ، وما يعرف بالعيان الى ما يعرف بالفكر » .

ـ ثم قبله الامام عبد القاهر واستجاده ، وجعل منه قول الشاعر :

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

فهذا التشبيه جار على التأول والتخيل ـ الذى هو عمدة الرمز ـ بحيث يخرج عن الظاهر خروجا ظاهرا ، ويبعد عنه بعدا شديدا ..

والتأويل فى البيت : أنه لما شاع وتعورف وشهر وصف : « السنة » ونحوها بالبياض والاشراق ، والبدعة بخلافها ... يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التى لها اشراق ونور وابيضاض فى العين ، وأن البدعة نوع من الأنواع التى لها فضل اختصاص بسواد اللون ، فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب فى سواد الشباب . فى قوله :

مستنشق عطر الثناء بسمعه ما كل طيبة تشم بمنخر

ـ ... ثم دار الزمن دورته ... وانتقل بعض الشعراء الى الدنيا الجديدة ، حيث رأوا بيئات يغلب عليها الظواهر الطبيعية المعقدة الغامضة ، كالجبال الشامخة ، والغابات المتكاثفة ، وغير ذلك .. فاستكثروا من الرمز فى التشبيه ، حتى عد أصلا من أصول شعرهم . ترى فى ذلك قول بعضهم :

ظل على وهج الجبين رسمته معجزة الاشارة
خط تساقط كالحزين أرخى على العزم انكساره

يريد بالظل على وهج الجبين : مقلة العين ، وبالخط المتساقط : جفونها الفـاترة الناعسة(١٢١) ٠

عناصر لا تتغير بالزمن :

وأعنى بها ثوابت التشبيه ، فاذا كانت هنـاك بعض التشبيهات التى هجرته الى غيرها ٠٠ أو ولد منها صفات ٠٠٠٠ بفعل تطور الزمن فصارت غير صالحة له ٠٠٠ سـواء فى نفسـية أهـله ، أو ثقافتهم ومعارفهم الجديدة التى زودتهم بها المعارف الجديدة ٠٠٠

اذا كان ذلك كذلك ـ كما رأيت ـ فان هـذا لا يعنى أن يدخل التجديد جميع عناصر التشبيهات القديمة

وذلك لأن هناك من تشبيهات القدماء ما تظل غضة طرية على مر الزمن ؛ لأن عناصرها ثوابت لا تتجدد ٠٠ فقيمتها فى قدمها ، والمحافظة عليها كما هى من غير تغيير ، فلا تذبل بمرور الأيام والليالى ٠٠٠

ويمكن ايجاز العناصر الثابتة فى التشبيه فيما يلى :

أولا ـ عناصر التشبيه القرآنى والنبوى :

وذلك لكشفهما عن حقائق النفس الانسانية ـ بسـمة عامة ـ وأغوارها ، واستمدوا ذلك من عناصر الطبيعة والنفس بما يعطيه صفة الخلود والبقاء ، بقاء الطبيعة والنفس ٠٠

---

(١٢١) ينظر فن التشبيه : ٢/١١٢ ـ ١٢٦ ، وبيان التشبيه ١٦٩ ـ ١٧٢ ، والبيان فى الصورة / ٢١١ وما بعدها د/ مصطفى الصاوى الجوينى دار المعرفة الجامعية ـ ١٩٩٣م ٠

حيث تجد صورة جبـــال البرد ... والســـحاب ... والجبال : أنواعها ووظيفتها فى الكون ، ودلالة ذلك على تفرد الخالق وسبحانه ، بالانشاء والتسخير ... ثم تغير طبيعتها واختـــلالها يوم القيامة ... كما تجد التشبيه بالكلب فى ذم المنتكس بعـــد المعـــرفة ، الضـــال بعد الاهتداء ... كل ذلك تجده فى عناصر التشبيه القرآنى .

ثم تجد صورة استواء الناس جميعا فى عنصر التشبيه النبوى ، فى تشبيه الناس بأسنان المشط ...

فهذه التشبيهات قـــد اكتسبت قداسة وروحانية وجلالا بورودها فى القرآن الكريم والســـنة المطهرة ، مما يضـــيف الى عناصرهما قوة وخلودا بجانب استمدادهما من الطبيعة والنفس ... (١٢٢) .

ثانيا ــ العناصر المستمدة من الكون والنفس فى تشبيه الناس :

بحيث تكون تلك العناصر عامة يشترك فى ادراكها كافة المتذوقين ، كالتشبيه بالشمس والبدر ، والجبال ، والأنهـــار ، والفجر ، والمطر ، والرعد ، وأحوال الخوف والغضـــب والرضـــا ، وماشابه ذلك مما هو شركة بين الناس والأمم ...(١٢٣) .

---

(١٢٢) ينظر : طرفا التشبيه القرآنى بين السياق والدلالة . د. محمود مخلوف ٣٩٢ ــ ٣٩٥ « دكتوراة » ، مكتبة سيدى الشيخ صالح الجعفرى ببنى عدى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، والبيان فى ضوء أســـاليب القرآن ٧٥ ، د/ عبد الفتاح لاشين ط ثانية ١٩٨٥ دار المعارف ، وبيان التشبيه ١٧٤/١٧٥ .

(١٢٣) ينظر : التصوير البيانى / ١٧٥ .

ولذلك تجد الصور الإيحائية أقوى فى تصوير العواطف والنفوس ، وأقدر على ابراز الأحاسيس فى مختلف العصور والمراحل ، لأن التشبيه ـ حينئذ ـ نابع عن ذات النفس ...(١٢٤) .

وبهذا تجد صورا من التشبيهات ـ فى الأطوار المتعاقبة ، والبيئات المختلفة ، والآداب المتقابلة ـ تظل حية فاعلة ، لا تسأم العين منها ، وكأن لها فى كل ساعة تجديدا ...

واذا أردت مثالا ، فانظر الى تدبيجات : « هوميروس » الفاتنة ، فتجد لها من القوة والتأثير البلاغى عند العربى الذى يذوق صفة البيان ، كما لها عند غيره من أهل لسانه .. مع اختلافهما زمانا ، ومكانا ، وأدبا ...

كذلك تجد لتشبيهات امرىء القيس الليل بموج البحر ... وتشبيهات الليل للنابغة جدة وحياة فى كل وقت ...(١٢٥) .

وهذا ما نبه اليه القاضى الجرجانى من أن مظاهر الطبيعة مشتركة بين الأمم جميعها ... يقول : « فان حسن الشمس والقمر ، ومضاء السيف ، وبلاده الحمار وجودة الغيث ، وحيرة المخبول ، ونحو ذلك مقرر فى الابداية ، ومركب فى الخلقة .. »(١٢٦) .

ثالثا ـ الألفاظ التاريخية :

التى كتب لها الخلود ، وسارت بهـا الأمثال ، مدحا كحاتم فى

---

(١٢٤) ينظر : النقد الأدبى الحديث / ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(١٢٥) ينظر : التصوير البيانى / ١٥٨ ، وبيان التشبيه / ١٧٥ .
(١٢٦) الوساطة / ١٧٢ .

الكرم ، وسحبان فى البلاغة ، أو ذما ، كمارد فى البخل ، وبأقل فى الغنى ، وعرقوب خلف الوعد ••• الخ •

وبهذا تجد ثبات الصور التاريخية على مختلف العصور ، لأنها مشبعة بالمعانى والتجارب والذكريات التى نسجها حولها الزمن ، وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة ، وتجعل أثره ممتدا الى آفاق فسيحة ، فلا تستغنى عنها اللغة فى جميع عناصرها ، مهما تبدلت حياة المتكلمين بها ، واختلفت بيئاتهم •••(١٢٧) •

ولهذا لا أجد مساغا لعيب بعض المحدثين تشبيهات تاريخية بدعوى أنها لا تشعرنا — نحن المعاصرين — بجمالها ، ولا ننفعل بها ••• ، ومن ثم فتشبيه الخنساء(١٢٨) •

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

يقول : « التشبيه نابع من البيئة ••• هو تشبيه صادق جميل فى عصره ، لكن ما قيمته فى بيئتنا الحضرية ؟ وفى عصرنا ؟ »(١٢٩) •

فنحن اليوم لا نشعر بجمال تلك الصورة ، فكم من معاصرينا خبر طول الرحلة فى الصحراء ، أو عانى السير فيها ، أو حدثته نفسه ليقوم ليتعرف على حياة أهلها وعاداتهم ؟

ولهذا لا يحس الحضرى هذا التشبيه وما فيه من معانى المجد والفخار ، كما كان يحسه العربى ••• (١٣٠) •

---

(١٢٧) ينظر : فن التشبيه ٢/١٥٤ ، ١٥٥ ، وبيان التشبيه / ١٧٥

(١٢٨) ديوان الخنساء / ٤٥ المكتبة الثقافية •

(١٢٩) البيان فن الصورة / ٣٨ ، ٣٩ •

(١٣٠) ينظر : البيان فى ضوء أساليب القرآن / ٦٨ •

هذا كلامهم ، وهو خطأ ، لأن التشبيه فى بيت الخنساء مبنى على عنصر من عناصر الطبيعة والنفس ... وهما لا يتغيران بمرور الأيام .

أما بناؤه على عنصر الطبيعة فهو التشبيه بالجبل ... وترى ذلك التشبيه فى الذكر الحكيم فى قوله ــ عز وجل ــ : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »(١٣١) . وقوله سبحانه : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال »(١٣٢) ، وقوله ــ سبحانه ــ : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد .. »(١٣٣) . فلو كانت عناصر التشبيه متوقفة على أشخاص .. لخرجت تلك التشبيهات من البلاغة .

والقول بأن المعاصر لم يخيروا الصحراء .. ولم ينظروا الجبال ... قول واه ينقضه التشبيه فى سورة النور : « جبال البرد » لأن تلك الصورة من الشمال الأوربى .. لم يكن للعرب بها عهد .. ولم يكونوا رأوا جبال الثلج ... وهذا بين ..

بيد أن تلك التشبيهات مستمدة من الكون الذى هيأ للنظر والتفكر .. ولا يضره أننا لا ننظر ..

أما بناؤه على النفس فهو كشف لطبيعة نفس الخنساء التى كانت ترى فى صخر الاطمئنان والثبات شأن ثبات الجبل ، وتثبيت الأرض ــ ورأت فى ذهابه ذهاب الأمن .

---

(١٣١) الرحمن / ٢٤ .
(١٣٢) هود / ٤٢ .
(١٣٣) النور / ٤٣ .

ولهذا فلا وجه لأن يكون التشبيه فى بيت الخنساء كالتشبيه فى بيت طرفة(١٣٤) ٠

يشق عباب المـاء حيزومها بها كما قسم التراب المغايل باليد

فى ذهابه مع الزمن : لأن هناك فرقا بين التشـبيهين ، حيث أن تشبيه طرفة قد تغير كلية بفعـل الزمن ، فالسـفن قد تطـورت ٠٠ وأصبحت ــ مدنا عائمة ــ كما تقـدم ــ ومن ثم فلا تتطـابق مـع المشبه به : قسـم الترب المغايل باليد ٠

أما فى تشـبيه الخنساء فالمشـبه به من الكون والطبيعـة التى لا تتغير ، فهى ثابتة وباقية على مر الأيام والأعوام ٠٠٠ يراها الحضرى كما يراها البدوى من غير تغيير ٠٠٠ الا فى المشاعر والانفعالات ٠٠٠

من ردىء التجديد فى عناصر التشبيه :

اذا كان التجديد مطلوبا فى عناصر التشبيه ، تبعا لسنة الحيـاة القاضـية بذلك ــ فى غير ثوابته ــ كما هو الحـال فى جميع الفنون والمعارف الانسانية ٠٠٠ فان هـذا لا يعنى الانطـلاق فى التجـديد كالمهر الأرن ، نحطم بنية الشعر ونطمس ألفاظه ــ ونؤثر الأسـاليب المهلهلة ، والموسيقى الشاحبة ونهيم فى أودية من الخيـال الجـامح الأرعن الذى لا تحده حدود ، ولا تمسكه ــ شكائم(١٣٥) ٠٠٠

كما أنه لا يعنى ــ أيضا ــ أن نرفض كل تعبير قديم ، ونعرض عن كل أسلوب تاريخى غابت عن بيئتنا حقيقته ، وخفى علينا أصله ٠٠

---

(١٣٤) ديوانه // ٢٠ ــ دار بيروت ١٣٩٩هـ ١٨٧٩م ٠
(١٣٥) ينظر : فن التشبيه / ٢٥٥ ٠

وقد نبه ابن طباطبا العلوى الى شيء من هذا فى قوله : « فاذا اتفق لك فى شيء من أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ، ونقر عن معناه ، فانك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة اذا أثرتها عرفت فضل القوم بها .. وعرفت أنهم أدق طبعا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته .

وربما خفى عليك مذهبهم فى سنن يستعملونها بينهم فى حالات يصفونها فى أشعارهم — فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم ، ولا تفهم مثلها الا سماعا ، فاذا وقفت على ما أرادوه لطف موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك »(١٣٦) ..

فهو يلح على مراجعة النظر فى تشبيهات القدامى قبل طرحها جملة ، واستبدالها بغيرها من التشبيهات ، لأن فيها حياة أمة ، وحركة حياتها على مراحلها المختلفة .

— ولهذا تجد الامام عبد القاهر مع اعجابه بتشبيه المحسوس بالمعقول — كما تقدم — يحكم بالاساءة على تشبيه المتنبى .

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

يقول الامام : « والنفس تنبو عن زيادة القول عليه ، وقد اقتدى به بعض المتأخرين فى هذه الاساءة ، فقال :

سواد صدغين من كفر يقابله بياض خدين من عدل وتوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق اذا دعته شهوة الاغراب الى أن يستعير للهزل والعبث من الجد — ويتغزل بهذا الجنس »(١٣٧) .

---

(١٣٦) عيار الشعر / ١٧ .
(١٣٧) الأسرار / ٢٣٣ .

فعلى الرغم من المبالغة التى تشع من التشبيه فى البيتين ، وعلى الرغم من التجديد فيـــه لأنه من تجسيم المعنويات وابرازها فى صورة حسية •• وهو نوع من التجديد فى الشبيه ــ كما تقدم ــ ••• على الرغم من ذلـــك فالتجـــديد ــ هنا ــ رديء ؛ لأنـــه نوع من العبث بالمعتقدات الدينية ••• وهذا خطير •••

ــ وزعم الدكتور مصطفى الجوينى(١٣٨) أن بيت سلم الخاسر = راوية بشار ــ فى اعتذاره الى المهدى :

وأنت كالدهر مبثوثا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ماكت عنان الريح أصرفه فى كل ناحيـــة ما فاتك الطلب

= أرقى ، وأجمل من تشبيه النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بهـــا أيـــد اليـــك نوازع

وعلل لذلك بقـــوله : « هنا العقل يرقى أى فى تشـــبيه ســـلم الخاسر ــ انتشار الفلسفة وفكرة الدهر ، ليل الحضر ، ليس رهيبـــا كالبدوى ، لم يكن قـــد اخترع الطيران ، ولكن الشـــاعر يتخيل امتلاكه الريح وتصرفه به حيث شاء •• » •

وأرى أن ما علل به جودة التجـــديد ، وحسن التغيـــير فى بيته « سلم الخاسر » ، انما هو لعكسه ••

---

(١٣٨) البيان فن الصورة / ٣٩ •
(١٣٩) التصوير البيانى / ٣٤ •

وذلك لأن تخيل الشاعر أنه قد امتلك الريح وصرفه كيف شـــاء ، يدل على وثوقه واطمئنان نفسه ، وعدم خوفه ... وان دل على قدرة الرشيد ، وطول يده ، وبسط سلطانه .. وعلى هـــذا فهـــو من ردىء التوليـــد ...

ـــ كذلك نرى من الغثاثة التجديد فى مثل قول الشاعر :

تشع بك الخواطر عن نفوذ أشعة اكس فى معنى ومبنى

وكذلك فى قـــوله :

وابسمى للقلوب تعبدك جهرا وانما أنت كالاله الوديع

فهو كالتشبيه فى بيت المتنبى السابق ... على الرغم من البون الشاسع ، والتفاوت الشديد بين النظمين .

ـــ وكذلك قـــوله :

شـــأنها كالعنصر الـــرد يوم فى بأس وســـحر

لأن المشبه به مفرق فى الخصوصية فى المعرفة ..

ـــ وكذلك قـــوله :

أنـــا ثـــروة كالكآ بة عمقـــا وكالغيهب

لأنه موغل فى الاستبطان النفسى ... فضلا عن أنه لا علاقة بين عناصر التشبيه حتى كأنها تتبرأ من بعضها(١٤٠) ...

---

(١٤٠) ينظر : فن التشبيه / ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

أثر التطور فى استقباح واستحسان بعض الاستعارات :

اذا كانت الاستعارات مبنية على التشبيه ، وتقدم القول بأن التشبيه صورة لما أدركته العرب فى باديتها ... ومن ثم أثر الزمن فى التشبيه ... = فان الأمر نفسه يحدث فى الاستعارة .. سواء فى نظم الشعراء ، أم فى نظر النقاد ..

ذكر ابن رشيق أنه قد يأتى القدماء من الاستعارات بأشياء يجتنبها المحدثون ، ويستهجنونها ، ويعافون أمثالها ؛ ظرفا ولطافة ، وان لم تكن فاسدة ولا مستحيلة ..

ـ ومن ذلك قول امرىء القيس(١٤١) :

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

فكان لفظة « هر » واستعارة الصيد معها مضحكة معيبة ، ويتندر ابن رشيق من تلك الاستعارة بقوله : « ولو أن أباه حجرا من فارات بيته ما أسف على افلاته منها هذا الأسف »(١٤٢) ...

ومبنى القبح ـ هنا ـ على تحديد وجه شبه لا يليق بالمقام وهو الصيد ، وهذا ما أخرجها الى القبح ..

كذلك حدد النقاد للاستعارة عمودا تجرى عليه ، فعيار الاستعارة الذهن والفطنة ، وملاك الأمر تقريب التشبيه فى الأصل حتى يتناسب

---

(١٤١) ديوانه : ١٥٥ ، و : « هر » ابنة سلامة بن عبد الله ابن علبم

(١٤٢) العمدة : ١/٢٧١ .

المشبه والمشبه به ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار لأنه المنقول عما كان له فى الوضع الى المستعار له(١٤٣) .

ثم جدت من المشاهد ما دعت الشعراء الى نقلها الى استعاراتهم ، فعابها النقاد لمخالفتها لعمود الاستعارة عند العرب ..

ـ وعلى هذا عيب المحدثون فى افراطهم فى الاستعارة ، وخروجها عن حد الاستعمال والعادة ، ومن ذلك قول المتنبى(١٤٤) :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقها وحسرة فى قلوب البيض والسلب

فهذه الاستعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وانما تحسن الاستعارة ـ على وجه من المناسبة(١٤٥) ..

ـ وعلى هذا عاب الآمدى استعارات أبى تمام فى مثل قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

وضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا(١٤٦)

ثم ساق الآمدى ستة وعشرين موضعا مما قبح فيه استعارات أبى تمام ـ ولسنا بصدد تحقيق ذلك ـ ولكن الذى يعنينا هو أثر الزمن

---

(١٤٣) شرح ديوانه الحماسة للمرزوقى : ١ ، ١٠ ، ١١ .

(١٤٤) ديوانه ١/٢١٩ .

(١٤٥) ينظر : الوساطة / ٣٨٤ .

(١٤٦) الموازنة / ٢٢٨ ، ٢٢٩ تح محمد محى الدين عبد الحميد ـ المكتبة العلمية بيروت .

فى عيب هـذه الاستعارات • وذلك أن الآمدى جرى على استعارات العرب قديما وقاس عليها ، فوجد أن أبا تمام قد خرج عنها ، فحكم عليها بالقبح ••

يقول : « وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له اذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه »(١٤٧) ، ثم أخذ يعدد أمثلة لاستعارات العرب المرضية عنده كاستعارة امرىء القيس لليل اسم الصلب •••

وعلى هذا جرى ابن سنان(١٤٨) فى عيبه استعارات أبى الطيب لمخالفتها ما ورد عن العرب ، وخروجها عن المألوف فى الاستعارة ••

ـ على أن استعارات العرب كتشبيهاتها ، تظل ثابتة اذا استمدت من الطبيعة والنفس ، أو الأحداث التاريخية التى تبقى حية شاخصة ••

وعلى هذا فلست مع الرأى القائل بأن استعارة زهير بن أبى سلمى فى وصف الحرب وآثارها = قد ضعفت بفعل الزمن ، وذلك فى قوله(١٤٩) :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

ففى البيت الثانى استعارتان : استعارة فى قوله : « فتعرككم » حيث جعل افناء الحرب للقوم بمنزلة طحن الحب فى الرحى ••

---

(١٤٧) السابق // ٢٣٤ •
(١٤٨) ينظر : سر الفصاحة ١٢٧ ، ١٣٤ •
(١٤٩) شرح المعلقات السبع للزوزنى // ١١١ •

وفى قوله : « وتلقح كشافا .. » استعارة تمثيلية ؛ اذ استعار النوق التى تلد فى السنة توأمين مثلا لكثرة الشرور والآثام الناجمة عن الحرب ..

فيرى بعض المحدثين أن تلك الاستعارة قد خفيت ، يقول : « ولكن اليوم قد خفيت الصورتان ؛ لذلك لم تكن استعارتهما موضحة ، ولا راسمة للصورة المطلوبة كما كان ذلك فى زمنهم »(١٥٠) .

وليس الأمر كما قال ؛ لأن الصورتين من الطبيعة وهى قاذفة فى كل يوم بولادة جديدة فى جميع الحيوانات ، وتكاثرها أمر مشاهد معلوم .. فتبقى تلك الاستعارة ببقاء تلك الظاهرة المتجددة ..

كما أن صورة الرحى وما تفعله فى الحب صورة موجودة فى مخيلة الانسان فى جميع العصور — قد يكون هناك من لم ير ذلك ، ولكن البيان الانسانى لا يعترف بالجزئيات فى رسم صوره ، بل على المعارف المنتشرة بين الناس ، والحقائق العامة .. وأرى أن الصورة فى بيت زهير من تلك الصور الحية ..

— وكما يقبح التشبيه اذا كان أحد عناصره ما استجد من فنون ومعانى بفعل التطور الزمنى .. كذلك استقبح أبو هلال استخدام ألفاظ العلوم فى قول الأخطل :

اكسير هذا الخلق يلقى واحدا منه على ألف فيكرم خيمه

وقول أبى تمام :

حتى اتقته بكيمياء السؤدد

---

(١٥٠) البيان فى ضوء أساليب القرآن ١/ ٢٤٠ ، ٢٤١ .

فلا ترى شيئاً أبعد من اكسير الخلق ، وكيمياء السؤدد(١٥١) ..

ـ وكما تقبح الاستعارة فى نفسها تقبح كذلك بسبب لواحقها التى .. « أثبتت من المشبه به ـ لم تعهد ، وانما عهد المجاز والخيال غيرها ، فانهم جعلوا الدهر انسانا ووصفوه بالوفاء ولكنهم لم يجعلوا له ابنا كيوم السبت ، ولم يكفوا عن امتنه ، ولم يجعلوا له أخدعا .. »(١٥٢) .

ولهذا استقبح قول الشاعر(١٥٣) :

فما ذكر الدهر العبوس بأنه له ابن كيوم السبت الا تبسما

ـ وكما كان للزمن أثر فى استقباح الاستعارة وهجر بعضها .. كذلك أثر فى استحسان الصورة الاستعارية .. ويظهر ذلك فى أبيات كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

---

(١٥١) كتاب الصناعتين / ٣٣٤ .
(١٥٢) التصوير البيانى / ٣٣٠ .
(١٥٣) البيت لأبى تمام وانظره فى ديوانه : ٢٤٣/٣ .

حيث عدها ابن قتيبة(١٥٤) من الأبيات التى لا طائل ورائها ٠٠ ثم بين ابن جنى(١٥٥) بعضا من محاسنها ٠٠ ثم فتق الامام عبد القاهر عن أكمامها وجعل فى الاستعارة قدرا كبيرا من الحسن والجمال ٠٠

يقول الامام : « ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة ، طبق فيهـا مفصل التشبيه وأفاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ اليـه فى الأخـذ بأطراف الأحاديث ٠٠٠ وأخبر بعـد بسرعة السير ، ووطاءة الظهر ، اذ جعـل سلاسة سيرها بهم كالمـاء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور اذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا ٠٠٠

ثم قال : بأعناق المطى ، ولم يقل : بالمطى ؛ لأن السرعة والبطء يظهران غالبا فى أعناقها ٠٠ »(١٥٦) ٠

ـ كذلك يكون فى توليد الاستعارة حسنا لها اذا أصلها كذلك ، وذلك كما فى قول سيدنا حسان فى رثاء سـيدنا عثمان ـ رضى الله عنهما(١٥٧) :

---

(١٥٤) ينظر : الشعر والشعراء ١/٧٢ ، ٧٣ ـ تح /| أحمد شاكر ط ثالثة ١٩٧٧م ٠

(١٥٥) ينظر : الخصائص : ١/٢١٧ وما بعدها ـ تح / محمد على النجار ٠

(١٥٦) الأسرار / ٢٣ ٠

(١٥٧) ديوان حسان /| ٢٤٨ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ٨م١٣هـ ١٩٧٨م ٠

ضحوا بأسمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

فالاستعارة فى قوله : « عنوان السجود » وقد أخذه من قوله ـ سبحانه ـ : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ..

ـ وكذلك التوليد فى قول كلثوم بن عمرو العتابى :

ومن فوق أكوار المهارى لبانة أحل لها أكمل الذرى والغوارب

فقد أخذه من قول طفيل الغنوى :

فوضعت رحلى فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل

ثم أتى أبو تمام وعول على العتابى وزاد فى المعنى زيادة بينة ، فقال :

وقد أكلوا منها الغوارب بالسرى
فصارت لها أشباحهم كالغوارب(١٥٨)

وهكذا تحسن الاستعارة بواسطة الزمن ؛ لأن المحدث يجدد فيها من الصفات التى تقربها الى الذهن .. أو تحقق التشبيه وتمكنه ...

أثر التطور فى هجر بعض الكنايات :

وكما كان للزمن أثر فى هجر بعض الصور التشبيهية والاستعارية . كذلك تجد له أثرا فى هجر بعض الكنايات لاختلاف المفاهيم ...

ـ ترى ذلك بينا فى كناية العرب عن العداوة بزرقة العين فى قول الشماخ فى سيدنا عمر :

---

(١٥٨) ينظر : العمدة ١/٢٧٤ ، ٢٧٥ .

وما كنت أخشـــى أن تكون وقـــاته
بكفى ســـبنتى أزرق العين مطـــرق

يقول المرزوقى : « وانما حلى قاتله بهذه الحليـــة ؛ تنبيها على حقارته فى نفسه ، وجنسه ، وذما لفرعه وأصله .. »(١٥٩) .

ومبنى كره العرب لزرقة العين ــ كما تقدم فى التشبيه ــ مرجعه الى أنها كانت صفة عيون أعدائهم من الروم ، فكانوا يعيرون الرجـــل بأنه أزرق ، ويصفون العدو بأنه أزرق العيون ..

ولكن لمـــا امتـــدت الفتوحات العربيـــة الى بلاد الروم ، ورأى العرب الجركسيات ، والصقليات .. ورأوا عيونهن الزرق ، أنســـوا بذلك ، فصارت زرقة العين كناية عن الحسن والافتتان به .. فمن ذلك قـــول الشاعر :

يا من هو المـــاء فى تكوين رقتـــه
ومن هو الخمر فى أفعـــال مقلتـــه
ومن بزرقة ســـيف اللحظ طل دمى
والسيف ما فخره الا بزرقته(١٦٠)

فانظر كيف استشهد الشاعر على حسن زرقة العين بحسنها فى السيف ، وأنها أمارة جودته وحسنه ...

ــ كذلك هنـــاك من الكنايات المرتبطـــة بوقت دون وقت ، وهى

---

(١٥٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ٣/١٠٩٢ .
(١٦٠) ينظر : فن التشبيه : ٢/٢٣٨ ، ٢٣٩ .

ما أطاق عليها « القلقشندى » : أوابد العرب ، وهى الأمور التى أبطلها الاسلام ..

ـ فمن ذلك الكناية عن كثرة الابل وعفائها بفقىء العين أو التعمية فى قول الشاعر :

وهبتها وأنت ذو امتنان تفقأ فيها أعين البعران

فقوله : « تفقأ فيها أعين البعران » كناية عن كثرة ما يملك من الابل ، وأصل هذا أن الرجل اذا بلغت ابله مائة فقأ عين الفحل ، وهى التفقئة ، فاذا زادت على ذلك فقأ العين الأخرى ، ويزعمون أن ذلك يدفع العين عن ابله(١٦١) ..

ـ ومن ذلك الكناية عن الأخذ بالثأر ببكاء النساء عليه ، وذلك فى قول الشاعر :

من كان مسرورا بمقتل مالك
فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه
يلطمن حر الوجه بالأسحار

وأصل هذه الكناية أنهم كانوا يؤخرون البكاء على المقتول ، فكان النساء لا يبكين المقتول منهم حتى يؤخذ بثأره ، فاذا أخذ به بكينه ..

ـ وكذلك الكناية عن الشرف بوطء المقاليت (وهن النساء اللاتى لا يعيش لهن ولد) وذلك فى قول بشر بن أبى خازم :

---

(١٦١) صبح الأعشى : ١/٤٠٣ .

يظـل مقـاليت النسـاء يطـأنه
يقـلن ألا يلقى على المـرء مئـزر

وأصل هـذه الكناية أنهم كانوا يزعمون أن المـرأة المقلات اذا وطئت قتيلا شريفا بقى أولادها ...

ـ الكناية عن دوام المحبة واتصالها بشق البرقع ، وذلك كما فى قـول الشاعر :

اذا شـق برد شـق بالبرد برقـع
دواليـك حتـى كلنا غير لأبس

وأصل هـذه الكناية أنهم يزعمون أن المرأة اذا أحبت رجـلا أو أحبها ولم تشق عليـه رداء ، ويشق عليها برقعها فسد حبها(١٦٢) ..

فهذه الكنايات هجرت لاتصالها بعادة كانت فى الجاهلية ، فجاء الاسلام فأبطلها ، فبطلت معها الكنـايات عنها .. وهنـاك كنـايات أخرى(١٦٣) تركت لاعتمادها على العادة .

والكناية كالتشبيه والاستعارة تظـل جديدة اذا اعتمـدت على تصوير النفس الانسانية كالكناية عن الهـزيمة بتولية الأدبار .. أو على الطبيعة الحية النابضة التى لا تختلف باختلاف العصور ...

ـ ولهذا فلا أرى فى الكناية عن رفق الراعى « بضعف العصا » فى قـول الشاعر :

---

(١٦٢) ينظر : صبح الاعشى : ١/٤٠٥ ، ٤٠٦ .
(١٦٣) ينظر : البيان فى ضوء أساليب القرآن / ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

ضعيف العصا بادى العروق ترى له اذا ما أجدب الناس اصبعا

= ضعفا ؛ لأنها لا تعبر عن الزمن المعاش كما يرى بعض المحدثين(١٦٤) .. ؛ ذلك أن الراعى من الصور التى بقيت مثلا لسائس الأمور .. على مر الدهور ، ولم تبهت فى العصر الحديث .. وقد سبق القول(١٦٥) بأن هناك من الصور فى الأمم الأخرى والديانات الأخرى ما بقى وخلد ، وذلك كصورة راعى الرعاة .... وما هنا كذلك ..

---

(١٦٤) ينظر : البيان فى ضوء أساليب القرآن ٢/ ٢٨٥ .

(١٦٥) البحث ص ٢٦٢ .

« مراجـــع البحـــث »

- أسرار البلاغة ــ الامام عبد القاهر الجرجانى ــ تح الشـيخ / محمود محمد شاكر ــ مط المدنى ــ ط أولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م .
- اعجاز القرآن ــ الباقلانى ــ تح أ/ صلاح عويضة ــ ط أولى ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .
- بيان التشبيه ــ د/ عبد الحميد العيسوى ــ مط القاهرة الجديدة ط أولى ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م .
- البيان فن الصورة ــ د/ مصطفى الصاوى الجوينى ــ دار المعرفة الجامعية ١٩٦٣م .
- البيـان فن الصـورة ــ د/ مصطفى الصاوى الجوينى ــ دار ثانية ــ ١٩٨٥م ــ دار المعارف .
- البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ تح عبد السلام هارون ــ مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ ط أولى .
- التصوير البيانى ــ د/ محمد أبو موسى ــ ط ثانية ــ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م .
- حاشية الدسوقى « شروح » دار السرور ــ بيروت .
- خصائص التراكيب ــ د/ محمد أبو موسى ــ ط ثانية ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م .
- دراسات وتطبيقات فى علم المعانى ــ د/ يحيى محمد يحيى ــ ط أولى ــ مط الأمانة .
- ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ــ تح محمد عبده عزام دار المعـارف .

- ديوان امرىء القيس ـ تح محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ـ ط خامسة •
- ديوان بشار ـ تح الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية •
- ديوان الخنساء ـ ط دار صادر بيروت •
- ديوان عروة بن الورد ـ دار صادر بيروت •
- ديوان على بن الجهم ـ تح/ خليل مردم بك ـ دار الآفاق الجديدة بيروت •
- ديوان عنترة بن شداد ـ المكتبة الثقافية بيروت •
- ديوان النابغة الذبياني ط أولى ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م •
- سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجى ـ ط أولى ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ •
- شرح ديوان جرير ـ محمد اسماعيل ـ مط النورى ـ دمشق ـ الشركة اللبنانية •
- شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقى ـ د/ أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ـ ط أولى ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م •
- شرح ديوان المتنبى ـ عبد الرحمن البرقوقى ـ دار الكتاب العربى ـ لبنان ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م •
- شرح المعلقات السبع ـ الزوزنى ـ دار الجيل ـ بيروت •
- الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تح/ أحمد محمد شاكر ـ ط ثالثة ١٩٧٧م •
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا ـ القلقشندى ـ مط الأميرية ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م •

ـ الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى د/ جابر عصفور ـ ط دار المعـارف •

ـ طرفا التشبيه القرآن بين السياق والدلالة ـ د/ محمود مخلوف « دكتوراة » ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ مكتبة سيدى الشيخ صـالح الجعفرى ببنى عدى •

ـ عروس الأفراح ـ ابن السبكى « شروح » دار الجيل بيروت •

ـ علم الفصاحة العربيـة ـ د/ محـمد على رزق الخفاجى ـ ط دار المعـارف •

ـ العمدة ـ ابن رشيق ـ تح/ محمد محى الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ ط خامسة ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م •

ـ عيار الشعر ـ ابن طباطبا العلوى ـ تح عباس عبد الستار ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط أولى ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م •

ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ـ ابن ظافر المصرى ـ تح د/ محمد زغلول سلام ، و د/ مصطفى الصاوى الجوينى ـ دار المعـارف •

ـ فن التشبيه ـ أ/ على الجندى ـ دار نهضة مصر •

ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكرى ـ تح د/ مفيد قميحة ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت •

ـ كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى ـ ابن قتيبة ـ ط أولى ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م ـ دار الكتب العلمية بيروت •

ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ ط دار المعارف •

ـ المثل السائر ـ ابن الأثير ـ تح د/ أحمد الحوفى ، و د/ بدوى طبانه ـ دار نهضـة مصر •

ـ من بلاغة القرآن ـ د/ أحمد بدوى ـ ط دار نهضة مصر .
ـ المطول ـ التفتازانى ـ مط والدة عباس الأول ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م
ـ الموازنة ـ الآمدى ـ تح/ محمد محى الدين عبد الحميد ـ المكتبة العلميـــة بيروت .
ـ النقد الأدبى الحديث ـ د/ محمد غنيمى هلال ـ دار نهضة مصر
ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ تح د/ محمد عبد المنعم خفاجى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
ـ نقد النقد : مناقدة ابن سنان للمتنبى بين التحليل البيانى والعمود الشعرى ـ د/ على عبد الحميد عيسى ـ ط أولى ١٩٩٧م ـ مط العـــدوى .
ـ النكت فى اعجاز القرآن « ضمن ثلاث رســائل » تح/ محــمد خلف الله أحمد ، ود/ محمد زغلول سلام ـ ط دار المعارف .
ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه ـ القاضى الجرجانى ـ تح/ هاشم الشاذلى ـ دار احياء الكتب العلمية .